الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

المجلس الأعلى للغة العربية

جائزة اللغة العربية
«أبو العيد دودو»
2004

# فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي

قراءة جديدة

أ. بشير ضيف الله

منشورات المجلس - الجزائر 2005

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
المجلس الأعلى للغة العربية

# فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي

قراءة جديدة

دراسة حازت على جائزة اللغة العربية 2004م
الموسومة "أبو العيد دودو"

أ.بشير ضيف الله

الجزائر **2005**

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
رئاسة الجمهورية
المجلس الأعلى للغة العربية

- **مجال الإنجاز العلمي:**

العلوم الإنسانية والاجتماعية.

- **عنوان الإنجاز العلمي:**

فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي.

- **إعــداد:** أ. بشير ضيف الله.

- **السنــة:** 2004 م.

الإيداع القانوني: 2005 -2448
ردمك: 4- 9- 9522-9961

منشورات المجلس الأعلى للغة العربية
شارع أحمد باي-الجزائر
الهاتف: 25/ 24 07 23 021
الفاكس: 07 07 23 021
ص.ب 575 الجزائر-ديدوش مراد

السنة 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

## الإهداء

إلى روح "مالك بن نبي" مفكرا ومصلحا، وإنسانا..

المؤلف

# قبل البدء

رجل مرّ من هنا... يختلف عن غيره من المفكرين بمنهجه العلمي الدقيق ورؤاه المتجذرة في العقلانية والسمو، لم يشأ أن يستبق الآتي، ولا أن يؤسس لفرضيات، أو تخمينات بعيدا عن الواقع، والمعطيات الراهنة، فالراهن وحده -في نظره- هو الذي يمنحنا فرصة تقصي، وتحسس الـ.. ما قبل، وهو أيضا الداعي الذي يجعلنا نضع مقدمات لنتائج كفيلة باستشراف الـ... ما بعد وبين هذا وذاك يحلق فكر "مالك بن نبي" الثاقب، حتى لقد عبر أحد الباحثين عن إعجابه بخاصيته الفكرية، فاعتبره سابقا لزمانه، منظرا مرموقا أعطى لكل مقام مقامه، وأوجد لكل حادث تفسيرا منطقيا قائما على درء الأحكام المسبقة، أو الواهية، فأسس بذلك لمدرسة فكرية جديدة عقلا وروحا، جعلت الكثير من معاصريه ينتقدونه أو يهمشونه لأسباب واهية وأخرى لكونه "جزائري"! نعم لكونه جزائريا بالدرجة الأولى، ومن شمال أفريقيا بالدرجة الثانية.

لقد طرح هذا التساؤل مرارا:

ماذا لو كان "بن نبي" مشرقيا؟ هل كان سيغيب ويلغى من حسابات الحركية الفكرية العربية الإسلامية رغم اختلاف

توجهاتها ومرجعياتها؟ أم أنّ الفكر مرهون بمقاييس جهوية وإقليمية، وربما حتى استعمارية؟ فلقد حاول البعض أن يشكك في قدرات "بن نبي" واتهامه بميوله نحو الحضارة الأوربية وأوجدوا تفسيرا لذلك كون الجزائر عاشت حقبة استعمارية طويلة في إشارة إلى إمكانية طمس هذه الهوية، وكأنها الدولة العربية الوحيدة التي عانت من ويلات الاستعمار فهل ذنب "مالك بن نبي" أنه جزائري؟

إنّ "ابن نبي"من خلال قراءتنا الجادة لطريقته المميزة في التحليل والتعليل، وقدرته على النفاذ إلى دقائق الأشياء تخوله أن يكون في الدرجة الأولى من المفكرين القلائل الذين عرفتهم البشرية، فهو مفكر عالمي بأتم معنى الكلمة، أوجد فضاءات حضارية، وإجابات لأسئلة الراهن الحضارية التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء، لأن الأصل في الحضارة هو التفكير الجماعي غير المحدود والهادف إلى المجاوزة، والانتقال بالفرد من عزلته إلى الطرف الآخر من المعركة التي تشترك فيها البشرية، إلى الشعور بضرورة التنسيق مع الآخر والتعاون معه فالحياة لنا جميعا، والحضارة طموح مشروع لكل البشرية وإن اختلفت الروافد، والمرجعيات إلا أنّ الغاية واحدة، والمطلب واحد وفي ذلك مشهد آخر غير المشاهد ذات الفكرة المحدودة التي ميزت المسار الفكري العربي، والإصلاحي خصوصا وهنا مكمن الفرق.

إنّ الفترة التي جاء فيها هذا المبدع لم تكن لتتناسب مع ما قدمه من أفكار وتفسيرات ومقدمات فاعلة، وأحيانا

استشرافية، فمحيط الأمّة الذي كان محصورا في صراعات واتجاهات فكرية مختلفة، وإن كانت تتبنى المطلب الإصلاحي وترى أي فكرة خارج هذا الإطار محكوما عليها بالإجهاض رغم أن المعركة الحقيقية كانت أكبر من ذلك، وأعمق، إلاّ أنّ هذا لم يمنع" مالك بن نبي"من تثمين بعض الجهود التي قام بها"محمد عبده" في مصر و"ابن باديس" في الجزائر، ويمّم هو إلى الطرف الآخر من المعركة، إلى الأفكار الناجعة والفاعلة، والمؤسِّسة لفعل الحضارة المفقود والتي بدأت الدراسات تتناوله بشيء من الاهتمام، والعناية، لأن هؤلاء أدركوا حقيقة ما أتى به" ابن نبي" والواقع فرض ذلك فرضا. «إذن فالواقع يفرض العودة إلى السؤال الحضاري.. سؤال الفاعلية، سؤال النهضة، وهذا هو سؤال"ابن نبي" الذي لم يستمع إليه معاصروه جيدا لذلك فالزمان الآن زمانه..» كما يعبر عنه الأستاذ "محمد شاويش".

إنّ الإصلاحات الحضارية التي ولدها الفكر "البنابي" هي اليوم بمثابة مرجعيات قارّة، ومدروسة لكل اتجاه فكري يضع إيجاد تفاسير مقنعة لأسئلة الحضارة، والراهن، مطلبا له، ومسارا تقتضيه المعطيات التي يدور في فلكها المجتمع العربي، والإسلامي بعد أن وقع تحت طائلة الاستعمار الجديد الذي أفرد له الاتجاه"البنابي" فصولا خاصة حتى قبل أن يوجد، وهاهو الراهن يثبت بما لا يدع مجالا للشك صحة ما ذهب إليه بعيدا عن الخلفيات المسبقة، أو الفرضيات المبنية على ثغرات تخمينية ليست من المنهج العلمي في شيء.

لقد وقف "ابن نبي" شامخا بفكره، مستجيرا من أفكاره بأفكار أخرى أكثر جدة، وأعمق تحليلا، وأقوى قدرة على التدقيق، والتواصل دون أن تكون له نظرة سوداوية لواقع الأمة المعيش، أو رجعية فكرية تلغي كل ما هو آت من وراء البحر من تجارب ناجحة تقدم للأمة أكثر ما تؤخر، فما جدوى أن يعيش إنسان القرن العشرين بأفكار القرن التاسع، أو العاشر؟ فهو أول من نادى بضرورة تجديد الموروث الحضاري والثقافي، ونفض الغبار عليه، لتشمل هذه النظرة حتى ذلك الكم الهائل من علوم القرآن والحديث والتفسير لأن المعطيات تغيرت، والحال يقتضي أن نطبق المناهج العلمية في استكناه حقائق، وأسرار القرآن الكريم، والسنة الشريفة بعيدا عن التأويلات، والقناعات الجامدة التي ترى في ذلك لغوا لا طائل من ورائه بدعوى أن الأقدمين لم يتركوا لنا شيئا نبحث فيه، وهو ما رفضه ابن نبي جملة وتفصيلا.

إنّ فلسفة الانطلاق من الواقع فيْ وضع المقدمات، والتحليل العقلاني لأصل المشكلات، وأسبابها لهي الصبغة الخاصة، والمتوثبة التي طبعت المدرسة التجديدية والمتأصلة للفكر "البنابي" وكرست استقلاليتها عن كل المؤثرات، والمعوقات، والخلفيات التي لم تزد أمور الأمة إلا تعقيدا حيث كسرت تلك الحواجز المزيفة، والتي أبعد ما تكون عن قيمنا، وموروثنا الحضاري، والثقافي، بل ساهمت في تضليل العقل وتحجيم دوره، ومنح المجال لشيوع الخرافة والرّدة الفكرية، وكان الفضاء الخصب، والمناسب لها هو الأمة العربية التي خرجت منهكة خائرة القوى من حقبة استعمارية خيمت تداعياتها

وانعكاساتها على الحالة العامة، فكان من الطبيعي أن يكون هذا الدور الكامن مغيَّبا، بفعل تهاوي القيم، وصراعها أحيانا نتيجة للشلل الحاصل، والذي يتطلب رؤية شاملة، ودراسة أعمق لأن المشكلة حضارية بالأساس تتطلب زمنا، ونهجا مبنيا على استمرارية الفكرة، وفضاء اجتماعيا يعيش مخاضا عسيرا يقتضي العناية به،وشموله بالرعاية، والتوجيه، والإشراف على ميلاده الطبيعي بعيدا عن الحلول القيصرية المفضية إلى نتائج عكسية تزيد في مغبة الوهن الذي كرسته ظروف استثنائية، وأخرى مفتعلة لتضاعف من جراح هذا المجتمع.

إنّ النهضة المرتقبة، والتي ينبغي لنا التحضير لها، والعمل على وضع أسسها، لهيَ أمر مفروض، وضروري لإثبات الذات من جهة وتحقيق الإقلاع بعد فترة الركود، أوما سماها بفترة "ما بعد الحضارة" فالأمة تعيش أشد حالات ضعفها، وتجاوزها لهذه المرحلة لن يكون غدا حتما، بل هومرتبط بمدى نجاعة وفاعلية الفرد العربي، فالإنسان هو مفتاح الحضارة ومحورها، والانطلاقة لا تكون إلا من هذا الاتجاه بتكوين عالم الأشخاص، وتحقيق الوثبة النفسية بعد الصدمة، وفترة الفراغ التي يصارعها هذا الفرد، غير أن الانتقال من مرحلة الاستلاب، أوالسلبية إلى مرحلة التوثب والمبادرة والخلق لا تكون إلا في نطاق علائقي اجتماعي مبدؤه قائم على شمولية النظرة المعزِّزة للبعد الاجتماعي، والداحضة للنظرة الفردانية المنعزلة التي كانت سببا في تعميق جراح الأمة ونكوصها في لحظة أشد ما تكون بحاجة إلى التظافر، والتكافل المحرك لدواليبها والباعث على التفاعل

والانسجام، لأن تفكك النسيج الاجتماعي هو أصعب مراحل مجتمعات ما بعد الحضارة، مما يعني عمليا التأسيس لأي بناء أو مشروع نهضوي من هذه النقطة بالذات.

لقد عثر"ابن نبي" على حقيقة ثابتة، وأساسية مؤداها ضرورة إيجاد فضاءات للتفاعل الاجتماعي الهادف إلى التغيير، والبناء قبل التفكير في أي مرحلة أخرى، فالبداية من هنا، والنتائج ترجمة للمقدمات العملية، والمنطقية، فإذا ما كانت كذلك، جاءت توقعاتنا مطابقة تبعا لما وضعناه من مقدمات.

لقد توصّل "ابن نبي" إلى مجموعة من التعليلات، والنتائج المنطقية، والرؤى الهادئة، والمتزنة في نفس الوقت تتخذ المنهج العلمي مسارا ثابتا لها، ولا تلغي النظرات الفكرية الأخرى سواء كانت عربية إسلامية، أو غربية، وكثيرا ما ضرب لنا أمثلة من هنا، وهناك تبرر انفتاح الفكر"البنابي"على الأفكار، والحضارات الأخرى بعيدا عن التعصب، والفردانية، فقدم بذلك مشروعه الحضاري الضخم كبديل لفرضيات أثبتت فشلها، أو بقيت حبيسة فلسفة هجينة تفتت الأفكار الخلاقة، وتنبذ كل دعوة إلى التغيير، والمبادرة.

إنّ الإنسان بصفته مشروع المشاريع الذي يقوم عليه كل فعل نهضوي جاد، والأفكار المتأصلة والمنبثقة عن واقع اجتماعي، وثقافة خاصة، وقيّم راسخة، عوالم تحدث الإقلاع المنشود إذا ما تفاعلت إيجابيا بفعل ما تنتجه كترجمة لهذا التفاعل.. كلها المشروع الحضاري الذي بشر به "ابن نبي"، وخصه بدراسات شاملة دوافعها الأساسية الرغبة

في تغيير الواقع، وإثبات الأنا الحضاري بخصائص ومقومات عربية، وطنية متأصلة، ومرهونة بالمنهج العلمي السليم.

لقد حاولنا في بحثنا هذا التركيز على هذه النقطة، لأننا بحاجة إلى قراءة واعية، وجديدة لفكر"مالك بن نبي" خاصة في أبعاده الحضارية التي تؤسس لمستقبل واعد، ومشرق كفيل باستعادة المركز الريادي لهذه الأمة، يقول "محمد شاويش" «إننا الآن بحاجة إلى قراءة أفكار هذا المفكر الهادئ، والتعلم منه، لا أعني بالضرورة أن نقره على كل تفاصيل تحليلاته ولكن يجب أن نستخلص ما هو قيم حقا في فكر "بن نبي"، وهو طريقته في رؤية مشكلة الحضارة الإسلامية، وتحليلها، والجوانب التي يلفت انتباهنا إلى ضرورة التركيز عليها».

من هذا المنطلق القائم على علاقة الدين بالحضارة كون هذه الأخيرة تنبثق أساسا عن فكرة دينية، تعرضنا بالتحليل إلى مفهوم الإسلام وأبعاده عند "بن نبي" بعد أن ناقشنا موقع مفكرنا من الفكر الإسلامي المعاصر الذي تناول القضايا الكبرى للأمة بغض النظر عن فلسفة كل اتجاه، أو طريقة تحليله حتى ننصف –ولو من باب الأمانة العلمية– المفكر الجزائري "مالك بن نبي"، ثم تقصينا فلسفة الحضارة عنده كمفهوم، وكرؤيا، وكبناء شامل له شروطه، ومقوماته وعوامله التي يقوم عليها بعد الوقوف على أسباب الانحدار الذي تعيشه الأمة، وتحديد العلاج الناجح لذلك، وتوفير المناخ الملائم.

ولئن اقتصرنا في عملنا المتواضع هذا على فواصل معينة فلأن محيط "الفكر البنابي" يحتاج في كل لحظة إلى قراءة متجددة،

وعميقة، وليس في مقدور أي كان استكناه حقائقه، مما يجعلنا مدينين لهذا المفكر المتميز بالكثير.. وصدق من قال أن العظماء لا يموتون بل يولدون في كل يوم مرّة!

**المؤلف**

# الفصل الأول

1 -" مالك بن نبي ".. البداية والمسار.

2 -" مالك بن نبي " في عيون معاصريه.

# 1- "مالك بن نبي".. البداية و المسار

مالك بن نبي مفكـر جزائري من مدينة قسنطيـنة تحديـدا، ولـد بها سنة1905، ونشأ في أسرة فقيـرة نسبيا من أم خياطـة وأب موظف دخل الكتاب صغـيرا شأنـه شأن عمالقـة الفكـر، والأدب العربي خاصة أنّ هاتـه الفـترة تميـزت باحتكـار المعمرين للمدارس النظاميـة ولم تكن السبل متاحة إلا للقليـل.

استمر على هذه الحال أربع سنوات، إلى غاية انتسابه إلى إحدى المدارس الفرنسية، ورغم ذا فـقد بقي محافظـا علـى علاقتـه بأقرانه، وبمحيطه خاصة، الحلقات التي كانت محورها المساجد.

ولمّا أتم دراستـه الإعدادية اتجـه إلـى تبسـه سـنة 1918م لينـهي المرحلة الثانـوية، ومن ثمة حصـوله علـى منحـة دراسية بقسنطينة حيث درس الفرنسيـة، والعربية معا إلى غايـة سنـة 1922م التي تميزت بربط علاقـات متعـددة مع تلامـذة الشيخ عبد الحميـد بن باديس –رحمه الله–

انتقل إلى فرنسا بحثا عن العمل سنة 1925م، ولم يتسن له ذلك، فعاد ليحصل بعد ذلك على منصب كاتب محكمة "بآفلو" –ولايـة الأغواط حاليا– ثم تم نقله إلى" شلغوم العيد" إلا أنه استقال بسبب حدوث خلاف بينه وبين كاتب محكمة الصلح الكورسيكي، وبحلول الأزمة الاقتصادية العالمية سنة 1929م لم يجد بدا من السفـر إلى باريس ثانية لإكمال دراسته، وسجل بمعهد الدراسات الشرقية، وتعرف هناك على تنظيم " الوحدة المسيحية للشبان الباريسـيين" وفقا لتطلعات شباب تلك المرحلة، فأصبح عضوا فاعلا، إلاّ أنّـه قرّر بعد ذلك ترك معهد الدراسـات الشرقية لينتقـل إلى مدرسة

اللاسلكي فرع هندسة الكهرباء فجمعته المقادير بزوجته الفرنسية الأصل والتي أصبح اسمها "خديجة" فكانت سندا له، وملاذا مهما في أهم مرحلة من حياته وذلك سنة1931 م تعرف إلى مجموعة من العلماء، والمفكرين أهمهم المستشرق ماسينيون، والمهاتما غاندي إضافة إلى منحى الفكر لدى " شكيب أرسلان" عن طريق "فريد زين الدين"[1]، إلى أن عاد إلى الجزائر صيف سنة 1932م، ويمضي بقية حياته متنقلا بين فرنسا والجزائر رغم شوقه إلى الأسفار، والرحلات، إلا أنّ الرغبة في بعث العنصر الجزائري، وتوجيهه، وإخراجه من عزلته المفروضة عليه فرضا، جعلته يفكر في إنشاء معاهد، ومراكز إشعاع لم يكن من اليسير تحقيقها[2]، فانقطعت بذلك زياراته لفرنسا رغم وجود زوجته بها، وإنما ظل يراسلها من "القاهرة" بعد أن تكفل "جمال عبد الناصر" به، فانشغل بأمور الفكر والتنظير من سنة 1956م إلى غاية 1963م حيث عاد مديرا للتعليم العالي إلى غاية 1967 م.

وما يلاحظ على "مالك" أن ثقافته فرنسية، وأداءه اللغوي كذلك وهذا مرتبط بنمط تكوينه الذي تلقاه، ورغم ذلك فقد تعلم العربية بالقاهرة، وكتب بها، وألف بها الكثير من الأعمال فكان أحد مستشاري المؤتمر الإسلامي.

كان بسيطا، متواضعا، صادقا، هاجسه إعمال الفكر، وتبويب رؤاه الإصلاحية، والفلسفية، والحضارية إلى غاية وفاته سنة1973م.

---

[1]- "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص16 ط: دار النفائس 1986.

2- "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص16 ط: دار النفائس 1986.

يقول د/أسعد السحمراني: «كان مالك غزيرا في إنتاجه الفكري بعض مؤلفاته وضعت ككتب، وبعضها مجموعة محاضرات نسقت في كتب، معظم ما كتبه بالفرنسية ومن ثم كان يستعين ببعض طلابه، أو أصدقائه لتعريبها..»[1] ليترك بذلك رصيدا فكريا هائلا تمثل في كتب:

- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
- مشكلة الثقافة.
- ميلاد مجتمع.
- إنتاج المستشرقين.
- في مهب المعركة.
- مذكرات شاهد القرن.
- بين الرشاد والتيه.
- شروط النهضة.
- وجهة العالم الإسلامي.
- المسلم في عالم الاقتصاد.
- آفاق جزائرية.
- تأملات.
- دور المسلم ورسالته.
- الفكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ.

[1]- المرجع نفسه.. ص18.

- الظاهرة القرآنية.

كل هذا، إضافة إلى مجموعة من المحاضرات، والمخطوطات التي بقيت حبيسة الأدراج.

## 2 -"مالك بن نبي" في عيون الآخرين

مهما حاولنا أن نحدّد موقع -مالك بن نبي- على صعيد الفكر العربي وتداعياته مشرقا، ومغربا، فإننا لا نفي الرجل حق قدره، لكن مهمتنا في كل هذا ما عبر عنه كثير من المثقفين والمفكرين العرب ممن عاصروه، أو جاءوا بعده بعد إطلاعهم على منحاه الفكري، ومواقفه على أكثر من صعيد، فقد كان مفكرا، ومصلحا، ومنظرا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى"فهو إنسان مسلم بكل ما لكلمة إسلام من بعد إيماني، وفكري وكان يترجم إسلامه في سلوكه، وأعماله، وأقواله.

كان يقدس الثورة كفكرة، ويفهمها أنها إرادة تغيير هادف.. كما يقول الأستاذ "فوزي الحسن"[1] الذي كان على علاقة وطيدة به استمرت لسنوات، وحفرت في مخيلته شواهد دالة على حقيقة وعظمة شخصية فكرية جزائرية متوقدة يقول : «كان ذا ثقافة واسعة، يجيد الحوار والرّد على سائله بشكل مقنع شاف، حتى أنه كان يستطيع تحديد اختصاص السائل العلمي لمجرد توجيه الأسئلة حول أي موضوع. كان ينشر كتبه لغرض إيصال فكرة، ولذلك فهي تباع بسعر زهيد مما يوقعها بعجز يسده من جيبه» فالأستاذ "فوزي" يبرز لنا بصدق حقيقة معاناة -مالك بن نبي- في إيصال أفكاره، وبذله في سبيل ذلك رغبة في بعث عالم آخر، عالم متجدد بعد سيل من الركامات والانهزامات فالرغبة في الانبثاق، والسعي في تجسيده سمتان أخريان كانتا تميزان مسار الرجل الذي شخص

---

[1]- المرجع نفسه.. ص20.

كثيرا من الحالات التي كانت تنخــر جسد هذه الأمــة.

يقول الدكتور"مصطفى السباعي" أنه: «استطاع بأسلوبه الــذي تفرد به، وثقافته الغربية الواسعة مع ثقافته العربية الإســلامية أن يوجــه إليــه أن أنظار جيل من شبابنا المثقـف الــذي يتــوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة، وسلامة التفكير، وبدأ يرى في الأستاذ بن نبي رائده الفكري البعيد النظرة القــوي الإيمــان، المناضل بقلمه في سبيل الإسلام»[1] مما يعني أن مالكــا اســتقطب بفكره طلائع الشباب العربي التواق إلى وجهة راكــدة عنوانهــا الردة، والاستعمار والضعف.

يقول الأستاذ "عمر مسقاوي": «تنطلق أفكار ابن نبي لا لتضيف في المجتمــع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه، أو علما مستخلــصا من تجارب الحضارة الحديثة، بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة فهو يطرح الإســلام كملهــم لقيمنا، وقادر على استعادة دور الإنسان مبرأ من ثقل الحضـــارة الإمبراطورية، وهو يرى أن الإسلام لا يقدم إلى العالم ككتــاب، وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية»[2]

فالإسلام في منظور مفكــرنا فكرة دينية عملية، واقعية خاليــة من التعقيد، والتشنجات الخارجة عن إطار القيمة الحقيقية المبتغاة من الاعتقاد الصادق، والصحيح لهــذا الــدين، فالإنســانية كــل الإنسانيــة مدينة له، بحاجة إليــه كلما تداعت القــيم، وتهــاوت الطروحات ذات الطابع الفلسفي الماورائي، الغارق في الاستشراف

[1]- المرجع نفسه.. ص21.

[2]- المرجع نفسه.. ص21.

والتمادي، إلاّ أنّ فلسفة الإسلام غير ذلك تماما عكس باقي الديانات الأخرى، فالواقعة كواقعة هي المنطلق الذي تجسده القيمة الدينية، والقيمة الفكرية المبنية أساسا على فاعلية الإسلام.

ويواصل الأستاذ عمر مسقاوي:«فقد أتاحت له نشأته في الجزائر أن يشهد يوميات الاستعمار تحمل حصيلة مئة عام قبله أو يزيد، وكان ذلك نقطة اتصال هامة كوّنت في فكرة الأستاذ مالك تجربة نقلت قلمه من صفحة الأرقام كمهندس إلى صفحة الفكر يتعرّض لمشكلات الحضارة بدلا من مشكلة الإنتاج الحضاري.

لقد وجد نفسه كمثقف جزائري أمام ترتيب ضروري لرسالته في المجتمع، فلا بد أولا من بناء الإنسان قبل بناء الآلة حتى لا نضع العربة قبل الحصان، فنقع في استحالة الوصول إلى الهدف الحقيقي».

فبعد أن كان التكوين الأساسي لمفكرنا في مجال الكهرباء، أدرك أن المعركة الحقيقية هي معركة فكرية قبل أن تكون أي شيء آخر والصراع الفعلي لن يخرج عن هذا الإطار، وربما كان هو السبب الحقيقي لتداعي الحضارة الأم، الحضارة العربية بعد مسيرة فكرية ناجعة، ومنتجة استغلها أعداؤنا وجسدوها واقعا حياتيا شاهدا.

لذلك اتجه هاته الوجهة -كما يؤكده الأستاذ مسقاوي- لأنها البديل اللازم، والدور المنوط به قبل أي دور آخر كمثقف، ومفكر له نتاجه، وأراؤه.

ومن بين ما قاله عنه "أنور الجندي": «مالك بن نبي يختلف كثيرا عن الدعاة المفكرين، والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية

أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة، والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم، وبين علم الغرب، وفكرهم المستمد من تراث اليونان، والرومان، والمسيحية»[1]

وهو ما يؤكده بدوره الأستاذ "محمد المبارك" حين يقول: «إنه عربي مسلم، ليس هو من المجتمع الأوربي الذي عاش فيه بجسمه في شيء، وكان تعمقه في الثقافة الأوربية سببا في تحرره من نفوذها، ومعرفته لمصادرها، ولدوافعها الخفيه وبواعثها العميقة ولاسيما أنه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ثقافة فلسفية واجتماعية واسعة الأرجاء، عميقة الأغوار، كما تدل عليه آثاره، ومؤلفاته العديدة التي قرأناها..

لقد تجمعت في قلبه ونفسه، في عاطفته وشعوره، في عقله وتفكيره مآسي أولئك الملايين من البشر الذين يعيشون على أرض الجزائر ضحايا لمدنية القرن العشرين، وأمثلة بارزة لانحطاط أهدافها، وغاياتها»[2] لقد كان مالكا رغم غربته الدائمة خليفة حقيقية لما يعيشه الجزائري، والجزائر الوطن الأم باعتبارها جزء من أمّة كاملة تعاني ما تعاني، وبالتالي إن ارتباطه بها ارتباطا قويا عبر عنه كل الذين عرفوه، وأبرزوا شعور هذا المفكر اتجاه وطنه -وإن كانت ثقافته أوربية- فالعبرة فيما ذهب إليه كلٌّ الذين أخذنا آراءاهم فيه أن الوطن، أو بالأحرى الجزائر كانت حاضرة بقوة في أهم مراحل حياته الفكرية بأحلامها، وآلامها، بكيانها

[1]- المرجع نفسه.. ص22.

[2]- المرجع نفسه.. ص22.

وتجسيداتها، بصراعها الشرس بمدنية القرن العشرين- كما يقول محمد المبارك- وبجذورها، وارتباطاتها، وعمقها الحضاري الكامن إلا أنّ نظرة -مالك بن نبي- كانت تصب في الصياغ الحضاري العربي، ككل والجزائر جزء هام في حلقة هذا الصياغ.

ويشير "محمد الميلي" إلى القيمة التي تحظى بها كتابات مالك بن نبي، وإشعاعات فكره، وخلاصات تجاربه ذات البعد الحضاري الإصلاحي في أوضاع معيشة صعبة تتسم بالاستعمار والهوان فيقول: «يستخلص بن نبي في كتاباته.. أن خلاص العالم الإسلامي يتمثل في تطويع الغرب لروح الإسلام، فقد كان فكر "مالك بن نبي" مدعوا لأن يلعب دورا معتبرا بعد الاستقلال، لكن هذا الدور كان محدودا بفعل عاملين: الأول هو نظريته عن قابلية الاستعمار والتي استغلها أعداؤه ضده عندما جعلوها نوعا من التبرير للاستعمار، الثاني هو الظرف الخاص الذي عرفته الجزائر بعد عام 1962م، والذي تغلبت فيه إغراءات التجديد.. وكذلك إغراءات التقليد للغرب وأنماطه الحياتية مما صرف النظر عن هضم عصارة الحضارة الغربية، والاستفادة منها إلى أقصى حد...»[1]

فموقع -مالك بن نبي- كان موقعا طلائعيا في استنفار القدرات الكامنة، وتحديد ملاجئ الكمون التي يفترض أن تتألق انطلاقا من الإدراك الفعلي لعمق المشكلة التي تعاني منها الأمة من منظور فكري واقعي بعيدا على التجريد السافر الذي ينثالُ على الفرضيات المثلى في تقصي الحقائق والوجهات الملائمة وفق أطر يقتضيها الرّاهن..

[1]- المرجع نفسه.. ص22.

إنّ "مالكـــا" بموضوعيتـــه في تحليـــل الأمـــور، ومنهجـــيته ودقتـــه في اختـــيار الألفـــاظ كـــان بمـــثابة مرحلـــة النضـــج الفكـــري في الفكر العربي الإسلامي كدليل عمل للثورة، وأسلوب مواجـــهة الاستعمار -كما يقول الدكـــتور "أسعد السحمراني" لذلك فالمعركة معركة فكرة، والفكرة لا تكون فكـــرة ما لم يعبر عنها.

من هنا انضـــوى هـــذا المفكـــر المنبـــثق ذي الخاصـــية الجزائـــرية يحدد الأسباب، ويضع البدائـــل ويبنـــي مشـــروعه الذي كان فعلا بديـــلا حضاريا من منظور عربي إسلامي ناجع.

# الفصل الثاني

1 - الفكر "البنّابي" وموقعه من الفكر الإسلامي المعاصر.

2 – الإسلام وعلاقته بالحضارة في الفكر "البنّابي".

## 1- الفكر البنّابي وموقعه من الفكر الإسلامي المعاصر

كما سبقت الإشارة إليه، فإن مالكا يعتبر مفكرا إسلاميا وإصلاحيا ذا مرجعية عربية قويمة رغم أنّ جل كتاباته باللغة الفرنسية، ولئن كانت بوادر الانبثاق الفكري لدى مفكرنا بارزة للعيان، إلا أن هناك عوامل كان لها دور في الحد من هذا الانبثاق نتيجة لخلفيات، وأسيقة كرست مشرقية الفكر بدل مغربيته، أو بالأحرى عوربته لذلك نجد أن مقام مفكرنا مفترض أن يكون في واجهة الفكر العربي المعاصر.

تحديدا من هذا المنظور، وتقصيا للمعطيات التي أحاطت بفترة نبوغ هذا المفكر، فإننا نحاول تحديد موقعه في الفكر الإسلامي المعاصر الذي عرف مجموعة من التحولات، والانزيحات بفعل ظروف معينة. فما موقع مفكرنا في هذا المسار؟!

يشير الباحث " محمد شاويش" إلى أنّ "مالك بن نبي" يشغل موقعا خاصا في الفكر الإسلامي نظرا لطبيعة تكوينه، ومرجعياته الفكرية، بل يقول أنه يشكل لوحده مدرسة خاصة من مدارس الاتجاه الفكري الإسلامي المعاصر خاصة وأنه يمثل اتجاها، عاش فترة استعمارية ليست ككل الفترات الاستعمارية التي عاشتها الأقاليم الأخرى، وما رافق ذلك من محاولات مسخ للهوية، وللذات معا، وفق خطط عملية مدروسة ذات غايات استعمارية قذرة ارتبطت بتهاوي الأمّة العربية ككيان بدأ يتآكل من الداخل شيئا فشيئا، فكان المصير الحتمي طبعا.

إلا أنّ محاولات المسخ هذه، لم تمنع مفكرا مثل مالك بن نبي

من أن يكون حلقة أخرى من حلقات الإصلاح التي قادها في مصر "محمد عبده"، وفي الجزائر"عبد الحميد بن باديس" ومن ورائه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو ما أهله لأن يكون مشاركا في التغيرات السياسية والايديولوجية في العالم الإسلامي، وفي المشرق العربي حسب "محمد شاويش"[1] إنّ الظروف الاستعمارية المحيطة بأهم مراحل حياته كانت ضرورة بوجه ما لتحريك الفعل الحضاري والفكري في مجتمع تسحقه الغطرسة، ويناله التنكيل، وتصهره مرحلة فمرحلة الدعوات التبشيرية، والتنصيرية، ولا يمكن بأي حال الفصل بين ما تعيشه الجزائر، والأقاليم العربية الأخرى، لأن هذا التداعي يصب كله في نطاق تراجع الدّور الحضاري للأمّة العربية أو الإسلامية في فكر مالك بن نبي فكان لابد من التعرف على أعراض هذا الداء الذي حاول المستشرقون أن يحددوه في صباغ واحد، وهو الإسلام الذي اعتبروه السبب الوحيد والمباشر في تخلف هذه الأمّة، وهو ما جعل مالكا يدخل في معارضات ومناظرات كثيرة لـرّد هذا الزيغ فالمشكلة في رأيه ليست البحث عن طرق حصار العلل، وإنما في كيفية الانطلاقة، والإقلاع من جديد بدءًا من القدرات الباقية أو الكامنة بمحاولة إحيائها، وتهيئتها لميلاد حضاري آخر على اعتبار أنّ التداعي الذي عرفه العالم العربي طبيعي إذا ما تدارسنا خلفيات ذلك من منظور ناضج.

إن هذا التفكير السليم لا يكون إلاّ لمفكر بحجم "مالك بن نبي" بل هي ميزة من ميزات مدرسته، يقول "محمد شاويش": «إنّ ميزة مدرسة مالك بن نبي التي تهبها طابعها الخاص في مدارس الفكر

الإسلامي المعاصر هي أنها تركز على مشكلة الحضارة الإسلامية، وليس على مشكلة السلطة السياسية»[1]

فالسلطة السياسية هي من صلب الحضارة، أو هي وجهها القائم على تصوراتها، وتوجهاتها، وأنماطها الموضوعة لها بعيدا عن أي صراع خفي أو ظاهركما يعتقد الكثير من المفكرين، وذلك هو الفرق الكامن بين نظرة مالك لأبعاد الأشياء، ونظرة معاصريه من أقطاب المدارس الأخرى «لكن الفرق بينه وبين المدارس الإسلامية التي ظهرت من الستينيات فصاعدا أنه لم يواجه مشكلة ابتعاد الدولة الحديثة عن الشريعة، بل استمر في المدة القليلة التي عاشها بعد الاستقلال في الاطمئنان إلى أنه لا خطر على الإسلام نفسه، وإنما الخطر هو في استمرار المسلمين في وضع الانحلال الحضاري».

ومن هذا المقتطف يمكن أن نتبيَّن ذلك الرفض الخفي الذي كان تواجهه أفكار مالك من قبل المدارس الأخرى مثل مدرسة "محمد عبده" التي عرفت بأفكارها المتشددة، والرافضة لمثل هذه التصورات والتي كانت قطبا من أقطاب الوهابية ذات الاتجاه السلفي، فرغم أن مفكرنا في بداية حياته تأثر بهذا الاتجاه بالغ التأثر كما يعبر في "مذكرات شاهد القرن" إلا أن وجهته اختلفت مما كان – في رأينا– سببا مباشرا في عدم اكتساح أفكاره المشرق العربي نظرا للمرجعية الفكرية المتشددة لهذه المدرسة الإصلاحية، ومثيلاتها، رغم ما لاقته أفكار مالك في أوربا وفرنسا تحديدا من وجاهة، وتقدير، فالاختلاف لم يكن أساسه المرجعية، بقدر ما كان في طريقة معالجة القضايا الكبرى، والراهنة لأن

[1]– المرجع نفسه ص:110.

القدرات الفعلية تختلف، وتتنوع مما ساهم في بروز نمطية جديدة تعتبر مدرسة -كما أشرنا- «إنّ طريقة "مالك بن نبي" في طرح مشكلة المسلمين كمشكلة حضارة ومجتمع، ودعوته المجتمع الإسلامي للنهوض بعمله الخاص الدؤوب، ودون انتظار نيل الحقوق من طرف خارجي هي طريقة قيمّة جدا نحتاج إليها هذه الأيام حين نرى أنّ من الإسلاميين من يمحور كل نشاطه حول هدف مطالبة السلطة بحقوق أو قوانين ويترك مهمة الإصلاح الاجتماعي مؤجلة بانتظار تطبيق الشريعة الإسلامية! إنّ طريقة مالك بن نبي في التحليل الصّبور لمشاكل الحضارة يحتاج إليها جيل الشباب عندنا الذين يميلون في حماسهم إلى ترك التحليل العلمي المنهجي، وتفضيل رفع الشعارات عليه»[1]

إنّ ما ذهبنا إليه في السابق، ويؤكده الأستاذ "محمد شاويش" في الإجابة على كثير من الأسئلة ظلت معلقة إلى حين حول المكانة التي من المفروض أن يحتلها تنظير هذا المفكر في طريقة تحليله وتفكيره، وبنائه، ومعالجته للقضايا بعلم ونجاعة؟! لأنه كان من شمال إفريقيا؟ أم لأنّ تكوينه بالفرنسية؟! أم لأنّه كان مرتدا في نظر أولئك المصلحين ومدارسهم؟!.

أم أنّ المرحلة التي تعيشها الأمّة في تلك الفترة تقتضي تغليب العاطفة على الفكر، والحماسة على التبصر..؟!.

«لعل لجوء بن نبي إلى التحليل الصّبور مما لا يجعله كاتبا مفضلا عند هؤلاء الشباب الذين يعجبهم الأسلوب الحماسي الذي يطرح أفكارا قليلة، وعواطف كثيرة، "مالك بن نبي" يطرح على العكس عواطف قليلة، وأفكارا كثيرة!

[1]- المرجع نفسه ص:110.

وهو بمنهجه هذا يعتقد أن مسألة نهضة الحضارة تخضع لسنن الله في الكون، وهي بالتالي تستوجب منا أن ندرس هذه السنن بإمعان لنستطيع التأثير، ونكون فاعلين في الحضارة.

العمل الصّبور المنهجي الدؤوب المتواضع الذي يقبل بإنجازات صغيرة هي لبنات بناء الحضارة المنشودة، ولا يتبع مبدأ "كل شيء، أو لا شيء"، وانطلاقا من هذا العمل، ومن قيام كل فرد في المجتمع بواجبه نحصل على حقوقنا الكبرى في العالم»[1] إنّ الاختلاف الواضح في الرُّؤى والأبعاد يفسر لنا حقيقة ما كان يجري من صراع تختلف مضامينه، وأدواته وفلسفاته أيضا، فتوليد الأفكار والحلول ليس كأتباع نمطيات سابقة، والاعتداد بها، وذاك هو الفرق الكامن، والداعي إلى بروز المدارس الشرقية في الفكر والإصلاح مع انكماش الدور الإصلاحي والفكري المغاربي بصفة عامة في وجه هذا التيار الشرقي الذي وإن كانت لنا مرجعياته، فإن الحلول ليست كذلك.

إنّ مالكا في منظور الفكر الإسلامي المعاصر بناء على معطيات غير دقيقة محكوم عليه من قبل كثير من المفكرين بأنه عالم اجتماعي ذي مرجعيات تختلف عن أولئك الذين يمثلون هذا الاتجاه في ظل غياب نظرة فاحصة لحقيقة الموروث والمكاسب التي أسّس على إثرها رؤاه، وفرضياته، وتخميناته.

وإن كان هذا الرأي فيه جانب مهم من الصواب إلا أنّ الخلفية التي بني عليها لا تنطلق من أساس الفكرة ذاتها كمضمون، وكأداء وكوسيلة، أو علاج، ولكنها نابعة من شعور سائد بالاحتوائية السلبية القائمة على تراكمات حضارية وفكرية معينة أثرت

---

[1]- المرجع نفسه ص:110.

في تحديد جملة من المفاهيم، لكن هذا الحكم لا يلبث أن يتـــداعى حين يمخُر مفكرنا عبــاب القضـــايا الإســـلامية ذات الرصـــيد الحضاري اللصيـــق بالتركيبة الاجتماعـــية للإنسان العربي حتى تنتفي من المتخيل الفكرة القابلة بانحصار الفكر "البنابي" ضمـــــن الصياغ الاجتماعي، بل نعتبرها نقطة قوة تفصل بـــين زمنـــين، واتجاهين، ومعطيين، فمن الجانب الزمني، لو استطعنا أن نضـــع مسارا متواصلا بدءا من تجليات العـــلامة "أبو حامد الغزالـــي".. وإلى اليـــوم نجد أن هذا المســـار يكاد يكون ثابتـــا دون زوايـــا، أو انتماءات ولو من باب التشكل نتيجة لسيادة مصـــطلح "الفكـــر الإسلامي" كحدود مضبوطة محرَّمُ تجاوزها، بل يكفي أن تنتـــزع الصفة اللصيقة به "الإسلامي" حتى يتوارد إلـــى الخـــاطر ذلـــك الانسلاخ بين الصفة، والمضمون، وإن كان غير ما يثبته الواقع.

أما من ناحية الوجهتين فهما اللتـــان تمـــثلان انقســـام الفكـــر الإسلامي في حدٍّ ذاته إلى أصولي، ومخـــالف لـــه، ولا نقصـــد بالمخالف له هنا المنفتح أو ما هو سائد، بـــل إنّ الجـــوهر هـــو الاختلاف بغض النظر عن المرجعيات أو الفلسفات، والمنهجيات حيث استطاع "مالك بن نبي" الجمع بين مجموعة مـــن الـــرّؤى، والدلالات، وحتى القضايا التي اعتبـــرت إلى حدّ بعيـــد حكـــرا على فئة دون الأخرى، لتتحـــدّد هنا دلائليـــة المعطيـــين اللـــذين ذكرناهما سابقا، فإمـــا فكر إسلامي ذو خطوط حمراء لا يمكـــن تجاوزها، وإما فكر مناقض حتى وإن كانـــت تبعاتـــه وأصـــوله إسلامية مما أوقع الرّبكـــة في تحديد مفهوم هذا المصطلح الـــذي لم يتم الفصـــل في جدله الدائر إلى اليوم بدليل تولد مجموعـــــة من الصفات التي وإن كانت تصب كلها في بوتقته إلى أنها تتفرق ضمن علاقة ضدية لا تعكس بحق سعة هذه المرجعيات المعتمدة

مثل: "راديكالي –واقعي–أصولي– سياسي" وهنا أقف مؤيدا لما توصل إليه الأستاذ "محمد شاويش" حين يقول: «في الحقيقة إنّ الذي يقرأ "بن نبي" وفي ذهنه منذ البداية طريقة الاتجاهات المعاصرة المسّماة الاتجاهات الإسلامية قد يميل، وهو يبحر في صفحات بعض مؤلفاته إلى عدِّه مجرد باحث اجتماعي، أو باحث في فلسفة التاريخ كان من الممكن أن لا يكون أصلا باحثا مسلما فكثير من نظرياته الاجتماعية، والتاريخية صالحة لأنْ تقال في ثقافة أخرى مهما كان انتماؤها الديني.

هذه نقطة افتراق كبرى عن الاتجاه الإسلامي السياسي السائد إذ أنّ هذا الاتجاه الأخير لا يهتم بالتحليل الاجتماعي، والتاريخي بحدٍّ ذاته بل هو أساسا تشغل باله فكرة واحدة هي إقامة المشروع الإسلامي، أو بالأحرى دولة على أساس الشريعة الإسلامية، وهو يرى أنَّ مشاكل المسلمين ناتجة عن غياب هذه الدولة، وأنه ما من حلٍّ مجدٍ قبل هذا القيام، وكل التحليلات السوسيولوجية والتاريخية إن وردت في كتابات هذا التيار، وورودها نادر فهي ترد لتأكيد هذه الفكرة الرئيسية»[1]

فمن خلال ما أشار إليه باحثنا نجد أنّ هناك حكما سائدا ضمن التيار الفكري الإسلامي لا يمكن تنحيته، أو حتى التخفيف من وطأته إذ يلغي مشروعية الرأي الآخر بمجرد خروجه عن غطاء الشرعية الإسلامي، فلا فكر خارج هذه الحدود المرسومة وهو ما يعني مصادرة الفكرة المقابلة رغم أن فلسفة الدين الإسلامي تقتضي مقارعة الرأي بالرأي، وتقبل الحل الآخر ولو كان مناقضا بعيدا عن التزمت الفكري الذي لا يعطي بدائل

---

[1]- المرجع نفسه ص:111.

دائمة ومستمرة وفاعلة بقدر ما يساهم في تجميد الفكر أصلا.

هنا يكمن الفرق بين الوجهة التي اتخذها" مالك بن نبي" كمفكر منفتح على الأفكار الأخرى، وبين الفئة الأخرى التي حددت أبعادها حتى قبل أن تجد البديل لكن هذا لا يعني البتة غياب المحاورات الجادّة، ومحاولات الخروج عن الأطر المرسومة سلفا، بل ظهرت إرادة في تجديد الرؤيا، وبعث المشهد من جديد كما عبر عن ذلك الاتجاه الواقعي في الفكر الإسلامي من خلال الحوار، والانفتاح، والرغبة في إيجاد فضاءات فكرية أملتها الظروف، والمعطيات، وحتى النتائج التي توصل إليها هؤلاء نتيجة لمقدمات مقفلة ومضبوطة، إلا أنّ المعيار "البنابي" كان فعلا نقطة تحوّل – بعدما اعتبره الكثير ردّة– حرّك من جديد دواليب اختراق الآخر، ومعرفة مرجعياته، وخلفياته وحتى محاولات التشيؤ فيه، ونمطياته مما أحدث ارتدادات حاولت وضع مفكرنا في إطار ضيق بالتركيز على تكوينه والظروف التي تعيشها أمته من استعمار، ومحاولات طمس لهويته إلا أنّ فلسفة الاتجاه لديه كانت أقوى، فالعمق الحضاري الذي عالج به تفاعلات الأحداث التي تمر بها الأمّة الإسلامية، وما تعانيه من مشكلات انطلاقا ممّا وضعه من تصورات منطقية عكفت على تتبع، وتقصي أسباب الدّاء كمرحلة أولى قبل إصدار الأحكام، أو تسفيهها على نحو ما فعل الكثيرون بحيث بسّط المشكل إلى أدنى وحداته التفصيلية بدقة متناهية ساهمت في بلورة رؤيا حضارية فكرية يخامرها اليقين أكثر من الشك أو الاندفاع.

فإذا نظرنا إلى كتاباته في النهضة وشروطها نجد أنه يحيط بالأسباب والظروف "الـ.. ما قبلية" للموضوع حتى لا تخرج عن نطاق الدّورة الحضارية وإن شئنا القانون الحضاري الذي بنا عليه

فرضياته، ثم البت في أصل المشكل دون فصله عما سبقه وفقا لما اكتسبه من تنظيرات وخبرات ترتبط دائما بقانون طبيعي عام أساسه الضعف من بعد القوة، والقوة بعد الضعف حسب كرونولوجيا التطور البشري والاجتماعي.

إنّ ما أدى إلى تغييب دور "مالك بن نبي" كمفكر إسلامي بارز يختلف عن الموجة التي عرفها الفكر العربي الحديث، والمعاصر هي كونه لم يركز على ضرورة تطبيق المشروع الإسلامي وإلغاء الاجتهادات الأخرى، هذه النظرة التي لا تزال سائدة إلى اليوم خاصة المنظور السلفي ممّا أعطى صورة لدى هؤلاء عن إقصاء مفكرنا للدور الريادي الذي تؤديه الشريعة الإسلامية في أي مشروع بناء حضاري، فالدين نواة الحضارة، ومركب عناصرها ولاشيء غير ذلك فالفرق الكمين بين الاتجاهين أنّ هامش الفكر، والمنطق، والحكمة وجد له مساحة هامة في المسار التحليلي، وحتى العلمي "لمالك بن نبي" الذي يرى أن مجموعة النصوص الفقهية بحاجة إلى اجتهادات عملية، وعلمية فهي لا تكفي وحدها لبناء حضارة أو تجسيد حلم أمّة ما لم يكن هناك عامل آخر مؤثر وهو العلم، أو إحكام العقل بعيدا عن الجاهزية التي جمدت كثيرا من الأفكار المشرقة التي أصبح العنصر الإسلامي بحاجة إليها أكثر من أي وقت مضى.

إنّ المشكلات العامة التي يعيشها المجتمع الإسلامي بصفة عامة لا ينبغي حصرها في إطار النصّوص والتشريعات الموجهة للأمّة بل لآبدّ من العمل على تدعيمها بكل ما من شأنه تفعيل الحلول، وتقليل هامش الخطأ دون أن تتعارض مع تركيبتنا، وتكويننا، واعتقاداتنا وحتى عاداتنا.

فالشريعة في نظره قانـون عـام للمسـلمين، ولكـن حيـاتهم الاجتماعـية تتقـرر بسنن لا تتعـارض معهـا، وإن كانـت نصوص الشريعـة لا تكفي وحدها لاستخلاصها.

وفي اعتقادي أنّ هذا الرأي هو بالذات رأي عالم شرعي متبحر رغم أن العناصر المتسرعـة الجاهلة في مجتمعنـا قد تسـارع إلى التنديد بهذا الفهم الذي هو في الحقيقة للمتأمل بديهـي فمـا الجدوى من الشريعة التي هي نواة كل بناء حضاري -كما أشرنا إليه- دون أن تكون مجسدة، ومؤثرة، وناجعة في آن واحد؟! فهي ليست نصوصا فقط، بل فكرة، وحياة، ومسارا.

فالفكرة لا تكون فكرة ما لم يعبر عنها، ومادام الحال كذلك فهي المدافع على تأسيسها وبلورتها كمجال معرفي يحـدث التواصـل الخلاق بين النّص الشرعي، والرغبة في استكناهه، والمتمعـن في حيثياته وأبعاده ليس كسوط شاهر سـطوته، وإنمـا كوسـيلة للتوجيه العقلاني المتفرد، السمح الذي يهـذب الأنـا الكاسـدة إذ تستحيل إلى الأنا- المنتجة-المفكرة- الفاعلة بعيدا عن القمع.

وهي حياة بما ترتبه من سلوكـات وحتى أفكار تعطي الصورة الملائمة للفرد الواغـل فيها قناعة، واجتهادا بما يفضيه الانطباع الشامل عن مدى نجاعة هذا الأسلوب النصّي الذي يفرض نفسـه عن طريق المحاورة، والإقناع والمبادرة أحيانا ضـمن الأسـقية الحياتية المختلفة.

من هنا يتحـدَّد مسار كل مشروع طلائعي مبني علـى رؤى صحيحة، وواعدة دونما حاجة إلى استغراق الزمن في ترتيبـات تساهم في تشييع الجهد، وتفتيته ووضع حدود له هي ابعد ما تكون عن حقيقة، وأسلوب الفرد المسلم المنشود.

«والاختلاف الكبير لرؤية "بن نبي" عن رؤية الإيديولوجيا العربية المعاصرة كلها، وليس عن إيديولوجيا الحركة الإسلامية ما بعد "البنا" فحسب، وأنه لا يرى حل مشكلة المسلمين في استلام السلطة مهما تكن جيدة بل يراها أساسا فعلا اجتماعيا، وتجدّدًا نفسيا وروحيا لمجتمع متين، شبكة علاقاته الاجتماعية كثيفة يقوم فيه كل فرد بواجبه ويركز على واجباته أكثر مما يركز على حقوقه»[1].

إنّ فلسفة الدولة -المشروع ليست في النصوص، أو الكم الهائل من القوانين، والمؤسسات، والهيئات- على اختلافها بقدر ما تكمن في الفرد ذاته الذي هو محور المشروع، فمهما بلغت تلك الجوانب فهي شكلية لا يمكن أن تؤدي دورها كاملا ما لم يكن الفرد ناضجا بالدرجة الأولى، وناجحا في المقام الثاني.

فالمشكلة ليست في إقامة الشريعة الإسلامية وتطبيقها أو عدم التقيد بها بل إن الإشكال أعمق من كل تصور، وهنا يكمن الفرق في التنظيرات، والسياسات، والرؤى السوسيولوجية المهتمة بالفكر الحضاري.

فالإطار الذي يجب الاهتمام به ليس هو النظام السياسي القائم وفلسفته، إنما هو العنصر-الجزء الذي يعتبر وسيلة التغيير والمبادرة، والانتعاش على اعتبار أن الهدف الإيجابي الذي يراد الوصول إليه محدد، فلا تهم الطريقة، ولا الشكل والنمط لأن الهدف مرسوم حسب خاصية كل مجتمع من المجتمعات فالشريعة والدين بصفة عامة عامل نهضة مؤثر لكن ليس هو النهضة المقصودة ذاتها، كما أنه ليس عاملا من عوامل الانحطاط

---

[1]-المرجع نفسه ص:111.

الحضاري بل إنّ المسبب للانحطاط هو الابتعاد عن الدين، فالدور على الأفراد، وليس على الفلسفات، أو التوجهات المتبناة في أي تنظير حضاري.

«إنّ هذا لا يجعل من "مالك بن نبي" شخصا لا يريد تطبيق الشريعة، لكن فهمه الأوسع أفقا لهذا التطبيق المستند بصورة أفضل إلى سنن الله في المجتمع، والحضارة.

فهو لم يؤسس حزبا سياسيا، ولا يطرح شعار إسقاط الأنظمة السياسية، ورؤيته لم تكن أيضا لتجعله يركز على مسألة الصراع على امتلاك القرار السياسي رغم أنه ما كان يهمل دور هذا القرار، غير أنه لم يكن يحسُّ بهذا الفصام المرير عن الأنظمة الحاكمة الذي يحسُّ به كثير من عرب اليوم...»[1]

فمن خلال هذا الطرح يتبين أنّ مفكرنا لم يحمل الهم السياسي الذي حمله معاصروه في قالب ديني ثابت، فالمشكلة الوحيدة لديهم هي الأنظمة السياسية على أساس أنها محور الشر، بل هي الشر ذاته والبديل لها دائما هو الشريعة الإسلامية غير انه بديل -في نظرهم- قائم على التقويض الكلي للدولة ككل، والانطلاق من جديد في سباق زمني غير متكافئ عكس الفكر "البنابي" الذي حاول سد هذه الثغرة لأن الخطأ ليس في الدين بل الخطأ في التقويض، والهدم القائم على وازع عاطفي غير ممنهج، ولا يملك من الأسلوب العلمي المنطقي إلاّ النتيجة دون مقدمات، أو ترتيبات، أو فرضيات تذكر.

أجدني أمام هذه النظرة الشارحة، الفاصلة ممتنا لهذا المفكر

[1]- المرجع نفسه ص:113.

الذي وضع الاجتهاد نصب عينيه بعيدا عن الخلفيات والأحكام المسبقة فماذا لو تمعن معاصروه في هذه النتيجة؟!

إنّ الصراع مع الأنظمة السياسية هو رأس المشكلة عند هؤلاء فهو ثابت حضاري غير أن "مالكا" يبعد الصراع كلية من أي مشروع أساسه التغيير نحو الأفضل، وليس التغيير من أجل التغيير، فالصراع قد يكون وسيلة، ولكنه لن يكون فلسفة، ونمطا حضاريا أبدًا.

ومن بين النقاط التي ساهمت في تجسيد فكر "ابن نبي" واعتباره منهجا غريبا عن الفكر الإسلامي أنه لم يشر في دراساته وأبحاثه إلى مفهوم الجهاد الذي ظل لصيقا بهذا التيار توجها، ومدلولا، ربما لأنه يعتبر في تصوره بعيدا عن أصل المشكلة الحضارية التي تتخبط فيها الأمّة، أو هو كما يشير"محمد شاويش" –«لا يراه طريقا يحل بذاته المشكلة حيث تحولت فكرة الجهاد إلى فخ يقود الأمّة الإسلامية إلى حتفها»[1]

ومما لا يخفى أنّ كل الاتجاهات الإسلامية المعاصرة في الفكر والدعوة تشهر الجهاد كسلاح ردع، وضرورة للتغيير حتى وإن كان الراهن يثبت أن لا قدرة لنا على ذلك، وغاب عن هؤلاء أنّ الحوار والمحاجّة، والمفاوضات هي أبرز سمات الدين الإسلامي الذي يقوم على مقارعة الفكرة بالفكرة قبل أن تتحول إلى السيف والقوة.

إنّ الجهاد في نظر مفكرنا يكون حلا أخيرا بعد استنفاذ كل السبل، والوسائل الأخرى لأن الجهاد الحقيقي الذي يفترض أن

---

[1]– المرجع نفسه ص:114.

يتخذه، ويتفهمه الفرد في الأمّــة هو مقاومة عوامل الانحطـــاط في النفس أولا ثــم في المحيط الأســري الصغيــر ثانيا، ثــم في المجتمع، ثم الأمّة فماذا يفيد الجهــاد فــي مجتمــع أفــراده مبعثرون، ولا وجود حتى لتواصل أدنى بين فيئاته، فما بالــك إذا تعلق الأمر بقضية كبرى كالجهاد؟!

إنّ السبب المباشر -في رأينا- الذي جعل "ابن نبي" لا يسترسل كثيرا في هذا الموضوع هو غياب الشروط الفعلية لــه، أو لنقــلْ انعدامــها تماما، وبالتالــي غياب الفكرة أصلا، مما حدا بعلمــاء ومفكري الأمّة إلى الريبة في أمر "مالك بن نبي" مع محاولة إيجاد تفاسير وتعليلات لتغاضيه عن كثير من المحاور التي لم يكن يرى من ورائها جدوى، فمعالجته للمضامين، والقضايا كانت بطريقــة تختلف تماما عن هؤلاء، هي أكثر عمقا وتمحيصا، وأشد تقصيا، وأبعد نظرا وأعلم منهجا، والدليل بقاء هذا الكم الهائل من الأفكار والرؤى تصارع التقلبات التي عرفتها الأمّــة الإســلامية دون أن تحيد عما رسم لها، أو يتلاشى أداؤها.فكل الاتجاهــات الفكريــة الإسلامية من السلفي إلى الواقعي إلى السياسي أوجدت بدائـــل، ومبررات لكنها لم تصل درجة الإقناع، أو حتى الثبات ممّا أوقعها في تناقضات كان الضحية فيها المجتمع الإسلامي المشتت فكــرا لا عقيدة، لا هوية، لا انتماء، ويكفي أن نضرب مثلا عن التيارات السلفية المختلفة، والأشد تعارضا فيما بينها في الفكر الإخوانـــي في مصر، والجزائر..

من هنا نجد أنّ القراءة المتأنية، والفاحصة لمعطيات الراهـــن دون فصله عن ماضيه أو آتيه باعتباره يشكل حلقة ذات صيرورة طبيعية مكنت للفكر "البنابي"، وشدت من إزره وفق التصــورات العلمية الممنهجة التي بوأته الزيادة -وإن أنكر الكثير منْ المدّعين

على "ابن نبي" ذلك– فهو لم يتشيـــع إلى أي من الأقطاب التـــي ذكرناها، وإنما تشيع إلى الرأي العا لمي الفـــاحص، الرافــــض للمقدمات الجاهزة، أو القابلة للانكماش.

وأمام هذا الهرم الدافق الذي يتأكد لنا يوما بعـــد يـــوم ســـبقه، وأحقيته في ريادة الفكر العربي على امتداد مناحيـــه، وتجاربـــه إنتاجا، وعقلانية وموضوعا كرّست الخاصية "البنابية" فهي نظرية مستقلة بذاتها، متفردة بأسلوبـــها، وفرضياتها فما هي الأسبـــــاب يا ترى التي جعلت كل ما قدّمه" ابن نبي" لا يحظى بما حظي به بعض معاصريه، وإن كانوا أقل شانا وتجربة منه؟!

لقد ناقش كثير من المختصين هذه النقطة، وأسهبوا فيها محاولة منهم إيجاد قناعات حقيقـــية تقلص من وطأة هذا الإنكار لجهـــود عالم ومفكر متميز، إلا أننا مع كل هذا نؤكد أن "العقدة الشرقية"

رمت بظلالها، وأحكامـــها على كل ما هو خارج عن الدائـــرة الشرقية، فلا مكـــان لصوت مغاربي أو جنوبي مهما بلـــغ، ولـــم يقتصر هذا على الفكر فحسب بل تعداه إلى الأدب، ومختلف علوم الاجتماع وحتى على صعيد السياسة فالهيمنة الشرقية ذات ترسبات لا شعورية أفضت إلى نتائج حجبت عنها الوجه الآخر للحكمـــة، لتحسس الغير الذي ينبـــض ملء فيه، ويحاول فرض أسلوبـــــه، وطريقته لتجاوز الهيمنة المحكوم عليها بالتلاشي، والانـــدثار، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تخرج عن الإطار الطبيعي.

لقد فهم هؤلاء أنّ صوتـــا جزائريا محدود الخاصية، والمرجـــع يعاني محقا استعماريـــا مبنيا على تبعيـــة الأخـــذ، والتحصيـــل، لا تستطيـــع إنتاج مشروع حضاري راق، ولا حتى تبني فكـــرة من الأفكار، فما بالك بقضايا الأمّة الكبرى الـــتي يرون أنها حكرا

على تلك الجهة التي رسمت لمسارها هالة بدأت تداعيات تقوّضها تمارس حقها اليوم بتمركز ثقل المشهد الثقافي العربي في لعبة توازنات بعد أن أثبت الواقع أن لا عقدة سواء غربية أو شرقية على محك المنهج العلمي السليم لقد تساءل الأستاذ "محمد شاويش" عن السر في قلة تأثير فكر "مالك بن نبي" رغم إشراقاته، وأرجع ذلك إلى عدة أسباب إضافة إلى السبب السابق الذي ذكرناه، حيث أرجع بعضا منها إلى صعوبة أسلوبه، ووعورة لغته، ولجوئه إلى التحليلات النظرية الدقيقة -وهو أمر ميّز مسار وتجربة مفكرنا- ممّا دفع إلى عدم الاهتمام به، خاصة أنّ صفة الجاهزية، والبساطة وتغليب العاطفة هي الأرضية التي يستثمر فيها الكثير من المفكرين العرب، وليس العكس.

إلاّ أنّ أهم ما أشار إليه الأستاذ "محمد شاويش" هو أن "ابن نبي" جاء في غير وقته، أو ولد لزمان غير زمانه، فترة ميزها النضال والحركات التحررية، والصراع الإيديولوجي مع موجة من الأقنعة.

والحال -في نظرنا- أنّ الظروف والزمن الذي وجد فيه "ابن نبي" ميزها الشعور الداخلي بالانتكاسة، والجمود بعد مرحلة سبات حادة قوقعت الأمّة من الداخل، وهمشت دورها من الخارج، ولم تكن الظروف تسمح ببروز الفكرة كمصطلح جديد، بل أن أساس العمل هو الإحياء الماضوي وهو ما عمل عليه مختلف العلماء، والإصلاحيون الذين لشدة ما ألمّ بالأمّة لم يكن لديهم الاستعداد الكافي للبحث الناجع، والاستقراء العلمي والموضوعي للظاهرة التي تتخبط فيها الأمّة، فالمشكلة لم تكن حضارية أبدًا في تصورهم، وإنما هي عقائدية -مسجدية ترتبط بتركيبة الإنسان الموجود في تلك اللحظة وكل عمل خارج هذا الإطار

يعتبر لاغيا، وهو ما أسس عليه معاصروه رؤاهم وإصلاحاتهم.

أما "ابن نبي" فكان بعيــدًا عن هذا الطرح لأنه رأى ما حــدث إنتاجا طبيعيا لمجموعة من المعطيات، والأحداث وحتى الترتيبات، فلم يصدمه الراهن بقدر ما مكن وسائل البحث، والتقصي لديــه، فأعطى الظاهرة نصيبها من العناية والاهتمام.

إن قراءة جديدة اليوم لفكر "مالك بن نبي" ومحاولة تحديد موقعه في الفكر الإسلامــي تجعلنا نضع الرجــل في مكانه الطبيعــي، في واجهة معيارية تتوقــف عندها كــل محــاولات الإلغــاء، أو الإنكار لأن المعطيات أثبتت أن تشعب الفكر الإسلامي، واختلافــه، واهتمامه بالقضايا الهامشــيه للأمّة، لم يزدها إلا ضلالا.

لقد وضع "بن نبي" إصبعه على الجرح بعيدا عن الانفعال الزائد والأحكام السلبية المتسرعة، والحلول السهلة دونما محاولة ربــط للأحداث ببعضها، فهي لا تنفصل -في نظره- ولها قانونها كمــا للطبيعة قانون أيضا.

من هنا بقي المشروع المنشود للأمّة يصارع نفسه فــي زوايــا منعدمة النور، وكل زاوية يفصلها عن الزاوية الأخــرى حقــب دامسة، فلا يمكن لها أن تتشكل وما لم تجد قــوانين اكتمالــــها، وهي الفكرة التي بقي" مالك بن نبي" يناضل من أجلهــا، ويعمــل على تكريسها.

«إذن هذا الواقع يفرض العودة إلى السؤال الحضــاري ســؤال الفاعلية، سؤال النهضــة، وهذا هو سؤال بن نبي الذي لم يستمع إليه معاصروه جيدا لذلك فالزمان الآن زمانه»[1]

---

[1]- المرجع نفسه ص:115

## 2 -الإسلام وعلاقته بالحضارة في الفكر البنابي

تجدر الإشارة إلى أنّ "ابن نبي" يرى النواة الأولى لإحداث وثبة الانطلاق الحضاري تكون أساسا فكرة ذات طابع ديني ممّا يعني أنّ العلاقة قائمة ومتينة بين كل مشروع حضاري مبني على فلسفة بناء ناجحة.

لذلك فالفكرة الدينية هي مرحلة لتجاوز العتبة وتحريك المفاعل، ووضعه في مساره الصحيح بحيث يصبح الفرد –المشروع على الاستعداد للبناء بعد أن أوجد ديناميكية التفاعل الاجتماعي بينه وبين الطرف الآخر، وهكذا. وكثيرا ما استشهد مفكرنا بالحضارة الإسلامية التي كان نواتها ظهور الدعوة المحمدية التي فكت القيود الفكرية.والعقبات التي تجهض المبادرة، والاقتدار، بل وتكبل حتى الرغبة في التجاوز، وتغيير الأنا– فما بالنا إذا كان المشروع مشروع حضارة؟.

إذن، فالدين عامل مهم وفاعل في بعث أي أسلوب أو نمط بناءٍ هدفه الانتشار، والاكتساح، والفاعلية المجاوزة لراهن الأشياء باعتباره مكونا له وظيفة تحرير الفرد الذي لا يزال بحاجة إلى إشباع ذاته، والفرد الذي لا يزال يحاول التخلص من هذه التبعية، لأن الإقلاع لا يكون إلا سدّ هذين المنفذين اللذين يميزان التركيبة البيولوجية للإنسان الذي يبقى دائما بحاجة إلى التبشير بضرورة إقلاعه.

إنّ ما أراد أن يصل إليه "ابن نبي"، هو ضرورة الانطلاق في أي بناء حضاري من أرضية صلبة أساسها الفرد الذي تم كبح شهواته بصفة طبيعية، روحية متيقنة تجعله محصنا في وجه كل

الاستفزازات، أو العواقب، أو ردود الأفعال بما يضمن صيرورة العمل المنجز، وتواصله، وتأثيره فيما حوله فكيف ينظر "ابن نبي" للإسلام وما مفهومه، وأبعاده؟!

في البداية نشير إلى أنّ فهم "مالك بن نبي" للإسلام يختلف عن شلة كبيرة من العلماء المسلمين الذي ينحصر في حدود العلائقية الصرفة بين المرء، وخالقه في صياغ الأوامر، والنواهي والنصوص غير القابلة للتأويل أو الاجتهاد، فهو يراه وسيلة لإقامة التوازن بين جانبين مهمين، ومكملين لبعضهما البعض هما الروح والمادة، فمتى كانت العلاقة القائمة إيجابية، كان نتاجها نظام اجتماعي متناسق، ومتكاثف، وإن حدث العكس كانت المشكلة الحقيقية التي ولدها الانفصام الحادث بين المنحيين.

فالإسلام مسلك حياتي قائم على أساس تحقيق التوازن في شخصية العنصر المسلم الذي هو مفتاح الحضارة خارج الأطر الفلسفية المجردة، أو التنظير الغارق في التصوف، والانعزال، فهو مشروع حياة ناجع قبل أن يكون صفة اعتقادية روحية تعِدُ ليوم آخر وتسفه الراهن، وإلاّ فما فائدة الحياة؟!

إنّ الفهم الخاطئ لسماحة الإسلام، وعمق دلالته شوه كثيرا تلك الصورة الناصعة التي ارتسمت في المتخيل الحضاري للبشرية، حيث اتجهت الجهود إلى مناقشة وإثراء القضايا الهامشية بما تثيره من جدل، وخلافات ظنا منها أنها في قلب المعركة، حتى صورت الإسلام دينا قاصرًا عن تحقيق أحلام، وطموحات البشرية التي تتوق لكيان ديني يخلصها من مشاكلها الكبرى، ويضعها على الجادّة.

"فالقصور في الحقيقة ليس في الإسلام، وفيه ثوابت التشريع لكل

زمان ومكـــان، وإنما في سوء التفسير، أو عدم إعطاء الاهتمـــام للتطوير"[1]

إنّ الإسلام قـــوة تماسك ووحدة في نظر "ابن نبي" وهو الـــدين الوحيـــد الذي يملك القدرة على تفعيل هـــذه الخاصية الروحيـــة وتمتينها، وتجسيدها، فقد نجح في الجمع بين الأعـــداء، والســـادة والعبيد في زمن لم يكن يخطر على بال، تحقيق هذا الحلم، لينطلق بعد ذلك هذا الزخم المتداخل في بناء حضارة لم يعرف لها العالم حدودًا.

«قوة التماسك الضرورية في المجتمع الإسلامي موجودة بكـــل وضوح في الإســـلام، ولكن أيَّ إســـلام؟.. الإسلام المتحـــــرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي، وقـــوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشـــودة، وفي يدها -ضمانا لذلك- تجربـــة عمرها ألـــف عام، وحضارة ولـــــدت على أرض قاحلة وسط البدو ورجال الفطرة، والصحراء»[2]

فالسر الكامـــن وراء هذا التجسيد الفعلي للمســـار الحضـــاري الصحيح كان في الحركة الإيجابية التفاعلية التي أوجدها الإســـلام في مجموعـــة من الأفراد تختلف تركيبتهـــم البشرية من فـــــرد إلى آخر، ولكنهم على اتفاق في ضرورة إنتاج مسار عملي منشود محدد، وصارم وفق فلسفة التكافل الاجتماعي والرغبة في بلـــوغ المرام مادام الجميع متساويين في المشهد المبدئي الأساسي، فالكل يعمل، والكل ينتج، والكل يساهم لأن المعركة مشتركة.

---

[1]- المرجع نفسه ص:112.

إنّ الإســلام بفلسفته المبنية على أساس التوفيق بـين الحريــة السياسية للفرد، والحرية الاجتماعية في نطاق الكــل والشــمول أعطى درسا لدعاة الديموقراطية حسب "ابن نبي" وكرس مبادئهــا في أسمى صورها، ووافق الرغبة والميول البشرية فــي مجــال العمل، والمنافسة والإنتاج، ولم يقيِّد هذه الحاجة مطلقا، والمتتبــع لمختلف التجارب الغربية في هذا المجال يدرك مدى ما ينطــوي عليه التنظير الإسلامي من زوايا ضيئة كفيلــة بالقضــاء علــى مخلفات، وتداعيات الأنظمة، والتطبيقات السياسية التي وإن نجحت في مجال ما، فإنها ستخسر في مجال آخر كما نرى اليوم.

«إنّ البلاد التي يحدث فيها هذا الاختلاف بين القــيم السياســية والقيم الاجتماعية، تعاني صراع الطبقات الذي ربما ينتهي إلــى تأسيس نوع مــن الديموقراطيــة يعطــي المــواطن الضــمانات الاجتماعية اللازمة، ولكن على حساب حرياته السياسية، ولكــن الإسلام تلافى هذا المعوِّق لأنه أتى لمشــكلات الحيــاة الماديــة المتصلة بالنظام الاقتصادي، بالحلول المناسبة دون أن يمس الفرد في حرياته الذاتية، وعليه فالإسلام يبدو وكأنه جمع موفــق بــين مزايا الديموقراطية السياسية والديموقراطية الاجتماعية، فالتشريع الإسلامي يتمم فعلا السمات السياسية.. بسمات ديموقراطية أخرى متصلة بالجانب الاقتصادي أيضا..»[1]

لقد ركز الإســلام على نقطة التوازن التــي أهملتهــا مختلــف الأنظمة الهادفة إلى الخلق الحضاري والخروج للبشرية بمشروع متكامل يبدو من المستحيل تجسيده نظرا لما ذكرناه سابقا، ونتيجة لعدم شمولية طرحها، فهي إن قدمت بدائل اقتصادية معيــنة فإنها

تهمل جوانب اجتماعية في الطرف الآخر للمشروع مما يؤدي إلى بروز خلل أشبه بالخلل التقني الذي يعطل الإقلاع، أو يؤدي إلى نسف كلي لما تم بناؤه في حالة الإقلاع، والنتيجة واحدة في النهاية.

«يصح القول بأن الحكم الإسلامي ديموقراطي في مصدره وعمله.. والإسلام يتضمن كل السمات التي تطبع الديموقراطية السياسية التي تمنح الفرد مسؤولية في تأسيس الحكم، والضمانات اللازمة التي تحميه من جور هذا الحكم»[1] فلا وجود إذن، ولا نجاح لمشاريع على حساب الفرد ذاته بإلغاء دوره أو محاولة حصره، أو تشويش فعاليته الكامنة بالحد من حريته، وبالتالي من قدرته على الإبداع والمبادرة، فلكي نجسد ذواتنا الحضارية على أسس قوية لابد أن نعمل على تجسيد دور الإنسان المجاوز المبدع المبادر، القادر على التواصل والانسجام مع باقي أفراد المجتمع في علاقة تكاملية قائمة على النجاعة، والفاعلية.

لقد أثبتت الرسالة المحمدية أنّ مشروعها هو الإنسان المسلم الحر بعيدًا عن عقدة النقص أو التمييز التي طبعت مختلف الأجناس الأخرى، حيث غرست في شعوره المبادرة وروح الإبداع انطلاقا من تساوي الأفراد أمام الله، وعدم التفرقة بينهم إلا بمقدار تقوى كل فرد، وكان الهدف الأساسي إثرها توليد عنصر التكافل، والتفاعل ثم النهوض.

إنّ الإسلام بنى فلسفته على دحض تهميش الفرد، وإفراغه من دوره كطرف أساسي له حقوقه، وكرامته، وخاصيته التي ميزته تميزا عادلا، وفي قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم

---

1- " مالك بن نبي " .. تأملات .دار الفكر 1981 ص24.

وحملناهم في البر والبحر﴾ ما يدحض الفرضيات الاستشراقية المتعصبة لحنقها الشديد على الدين الإسلامي الذي يطرح بدائل قائمة وعملية لإنقاذ العالم من العبودية والانكسار.

فالإنسان المسلم عملي بطبعه، فعّال بعقيدته، مقدام بتركيبته ينبري لتحقيق ما رسم من أهداف مشروعة مع الإدراك التام لإنسانيته كإنسان يمثل محور الوجود في رحاب دين ذي رسالة عالمية لا تعرف الحدود فهو لا متناه، مشرئب دائما إلى تخليص الإنسانية من براثن فلسفات أثبت التاريخ ضحالتها، ومحدوديتها «فالإسلام في مركز العالم الحديث حيث محت الحضارة التكوينات، والأوضاع الأخلاقية التقليدية حيث فرضت تكويناتها، وأوضاعها الصناعية فخلقت بذلك فراغا روحيا هائلا بدأ الناس يستشعرونه في العالم المتحضر، فهو بسبب روابطه العديدة بالنسيج الإنساني الراهن... هذا الإسلام هو الجسر الذي يصل ما بين الأجناس، والثقافات فهو عامل بلورة وعنصر جوهري، إذا ما أردنا اليوم تكوين مركب حضارة أسيوية، وغدًا تكوين حضارة عالمية»[1] ولن يتأتى ذلك إلا بالاستثمار الدائم للطاقات التي تولدها الإرادة الدائبة، والرغبة في المزيد، كون أنّ الوثبة العملية الدافعة إلى سلوك الإنسان هذا المنحى المثابر، قد حققها الدين، وعمل على إيداعها الإنسان كمفتاح ضروري، ودائم لكل حالة ركود، أو إحباط قد تصيب الأنا المنتج، إلاّ أنّ استغلال هذه القدرات لا ينبغي أن يكون بمنأى عن المسار الجماعي العام حتى لا تتسم المبادرة بالفردانية المخلة، فلابد من توجيه هذه الطاقات ورسم وجهات لها، بما لا يتعارض والخطوط الكبرى للعملية.

[1] - "مالك بن نبي" فكرة الإفريقية الآسيوية، دار الفكر 1979ص 22.

«في المجتمع العربي، وفي العالم الإسلامي طاقات، وخامات بشرية ومادية، تؤهلها للعب الدور العالمي المطلوب، ولكن باستثمار هذه الطاقات وفق المثل العليا، والقيم الإسلامية وبشكل مقنن منظم يحولها إلى طاقات فاعلة، ويزيل عنها صفة العطالة، والكسل، وبتأثير من الفكرة، والإطار الروحي تصبح هذه القدرات قوى اجتماعية فاعلة يؤدي فيها الإنسان دوره بالشكل الذي يليق به، وبهذا الأسلوب يعالج مرض الفصام، أو ازدواج الشخصية الذي يعانيه الكثيرون بين شخصيتهم»[1].

إنّ هذه النقطة بقدر أهميتها، لم يتناولها إلا القلة من مفكرينا فالانفصام الحادث بين طرفي الإنسان كتجربة، وكفكرة كان سببا في تقويض، وإجهاض كم هائل من المبادرات، وأحيانا صرفها عمّا أريد لها نتيجة للتردد غير المبرر، أو الإقدام غير المدروس، أو الموجه.

فعندما نتساءل عن الصيغة التي استطاع بها نبي هذه الأمّة وفي ظرف وجيز تشكيل ملامح دولة قوية، قائمة على قاعدة صلبة، نجد أنّ المشكل النفسي للأفراد الذي يولد التردد، أو لنقل السبب المباشر قد أمكن تجاوزه ليصبح سلاحا فعالا في معركة إثبات الوجود بعد أن كان سببا في الخمول، والركود الذي أدى إلى نتائج أبرزها الواقع، وحللتها التجارب، وكيفها التاريخ.

أما الجانب الآخر المشرق من فلسفة المسيرة المحمدية فكان ذلك القائم على تنسيق الجهود والعلاقات بين كل أطراف المشروع انطلاقا من أنّ الهدف هو الجميع، ولا حاجة للفرد ما لم يكن للطرف الآخر حاجته، وبذلك يكتمل الإعداد في علاقة توافقية

---

[1]- "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص101

نقصي من أبجديتها كل ما من شأنه تحويل هذه العلا قة إلى منحى ضدي لا يكرس الرهانات الكبرى ولا يقيم اهتماما لها.

«فالمشكلة التي نواجهها إذن ذات جانبين: جانب اجتماعي وجانب نفسي، وقد أرتنا أوجه التعارض السالفة أنه لكي نعالجها من كلا جانبيها، يجب أن تكون لدينا فكرة عليا تصل ما بين الروحي والاجتماعي، وتجري من جديد تركيب الشخص السليم المسلم بحيث يتماثل مع ذاته، في المسجد وفي الشارع»[1]

إنّ فلسفة التوحيد القائمة على جدلية الوجود، والتمكين للإنسان في هذه الأرض بعد أن يعبد الله، ويؤمن بوحدانيته، هي التي كونت في المتخيل الشعوري للفرد ضرورة تحقيق ذلك التناسق بين جانبين مهمين في حياته الدينية، والعملية يقتضيان التوجيه، والإحياء الدائم الذي لن يقوم به إلا الدين البارز كبطارية شحن للطاقات، وشحذ للهمم، وتكسير للخمول والسلبية، الناجمين عن نكران هذا الدين أو عن سوء فهمه مثلما فعل العديد من المتصوفة الذين حصروه في نطاق العزلة، والخلوة على نحو ما كان يفعله الرهبان ظنا منهم أنّ لا حاجة للدين بالدنيا، وأنّ المشروع كله في هذا الوجود هو الهروب من واقع مشؤوم نحو رحاب آخر يرونه واسعا، وهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن هذا.

إنّ "مالك بن نبي" نظر إلى فلسفة التصوف والعزلة نظرة فيها كثير من المنطق، والعقلانية، ورافع من أجل فكرته القائلة بضرورة إخراج الدين من بؤر الدجل التي تشبه إلى حد بعيد ما حدث في العصور الكنيسية المظلمة التي جمدت كل رغبة، أو مبادرة لتغيير الواقع، أو تفعيله نظير رؤيا قاصرة قوامها

---

[1] – "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع، ت/عبد الصبور شاهين، دار الفكر1979 ص 100.

إشاعة السلبية والكمون من منطلق فاسد، فما الفائدة من الحياة إذن إذا كانـت كلها تتحصـر في معبد، أو كهف؟! والعيش عالـة على الغير رغم أنّ الدين بعيد عن هذه الشبهة تماما؟!

«إنّ الدين مركـب القيم الاجتماعيـة، وهو يقوم بهـذا الـدور في حالته الناشئة حالة انتشاره، وحركته عندما يعبر عـن فكـرة جماعة، أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذريا دون إشعاع، أعنـي نزعة فردية فإنّ رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصـبح عاجزًا عن دفع الحضارة وتحريكها، إنه يصبح إيمـان رهبـان، يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم، ومسؤولياتهم»[1]

فالمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه العقيدة يكمـن فـي الإصـرار على التغيير، والمبادرة، والضرب في الأرض باستغلال القدرات العقلية، والذاتية، التي أساسها الإنسان بما مكنه الله له على هـذه الأرض، فلو نكصنا على أعقابنا، وانسحبنا من الواقع الحياتي بحثا عن الآخرة، تجردنا من مسؤولياتنا وكان علينا تحمل تبعات ذلك.

«فالمسلم دوره في الدعوة والتبليغ، ودوره في نشر الحضـارة والمثل، وكلما ازدادت أساليب الحصار من قوى المادة، والقـوة، وضاق الخناق، يجب أن يخـرج من أعماق ذلك عـزم قـوي على العطاء من أجل توسيع دائرة الانتصار، وهـذا الفعـل هـو صنيع الشخص المتزن المتوازن الذي يحسن تحويل المثل، والقيم إلى سلوك معيش يطبقـه على نفسـه، ويكون القدوة، والطليعـة التي تتقـدم الصفـوف حتى يسهـم في صنع رصيـد التاريخ»[2]

---

[1]– "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي، ت/ عبد الصبور شاهين، دار الفكر،بدون تاريخ.ص 32.

بمعنى آخر، أنّ الإنسان المسلم هو ذلك المبشر بالحضارة المنشودة والداعي إليها عكس ما يعتقد الصوفية الذين حصروه في ملاءة العبادة، والجمود دون التفكير حتى في أدنى متطلباته الذاتية كالسعي لكسب القوت، فهو عالة على غيره من هذا المنظور، والإسلام لم يأت بهذا مطلقا بل جاء داعيا إلى السعي، والعمل لتحسين أوضاع هذا الفرد فمنهجه قوة الفكر والذكاء، ووضع فيه مكامن التغيير لينطلق في إثبات ذاته، وقدراته وتفوقه بإرادة منه بعد تجاوز الحاجز النفسي الذي كثيرًا ما قيده، وجعله رهين خرافات، وتصورات لفترة غير قصيرة، فجاء الإسلام مبشرا به ومنقذا له من براثن التعصب، والجهل، والقابلية للاستعمار.

«فالمسلم ممثل لدور فريد لأنه يحمل شريعة فريدة بكل ما فيها تدفعه ليكون واعيا للخير، عاملا من أجل الإنسان، فمسرح التاريخ متروك لدوره الرائد وإذا لم يقم بهذا الدور المعتدل الذي يحمل العدل سيترك فراغا تنفذ إليه شرائع التطرف نحو المادية الصرفة أو نحو المثالية البحتة، وهنا تكون مصيبة البشرية، فعلى المسلم دور الدعوة، ومن ثم دور الشهادة على الآخرين بعد إبلاغهم، فكون الإنسان المسلم ممثلا وشاهدا ليس أمرًا حاصلا باختياره، وإنما هو تكليف إلهي، وتشريف بإعطائه الدور الظاهر على كل الأدوار»[1]

لأنّ الفلسفة التي يقوم عليها الدين الإسلامي ذات أبعاد حضارية قبل كل شيء، فهي تؤسس لهذا الفعل داخل الإنسان ذاته، وتفعله بما يزكي رغبته في الانبعاث، والتألق بدافع تركيبته القائمة

---

[1]- "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص104

على حب التفوق، والانتصار التي تميز الإنسان بصفة شاملة.

لقد أيقظ الدين الإسلامي في الإنسان كوامن الأشياء، وحركها وأوجد لها مناخا مناسبا "لانفجارها" ورسم لها فضاءاتها المأثورة حتى لا تحيد عن المسار الصحيح، وتخرج عما هيئت له، فأسست نواة حضارة في ظرف زمني قصير لا يتجاوز العشريتين وتوسعت شرقا، وغربا، شمالا، وجنوبا لتحتل بذلك عالمية الدور وتقوض أركان الحضارات الزائفة، الحضارات القائمة على فلسفة القوة، والقهر والمغيبة لدور الإنسان الفاعل المنتج.

لكن كل هذا عرف تراجعا بفعل الردّة التي عرفها الفكر الإسلامي نتيجة لأسباب معينة، أهمها القصور في فهم العلم القرآني الذي شجع على شيوع الدجل، والركود المفضي إلى التداعي الحر بحيث بدأت تتكرس ملامح جاهلية أخرى، ونمطيات فكرية، وعقلية رجعية معدومة الإبداع، والاجتهاد قائمة على بدع ما أنزل الله بها من سلطان.

إنّ "مالكا" كان منهمكا شديد الاهتمام بهذه النقطة، وركز على توضيحها لأنها السبب المباشر في الهزة العنيفة التي عرفها الإسلام والأمّة الإسلامية بما أحدثته من ثغرات، وفجوات أسهمت في تفتيت الخيارات الإسلامية وبالتالي الفرد المسلم الذي خالجه الانفصام الحادث في معتقداته، ودواخله بفعل موجة التشكيك في روافدها، وتبعاتها مما ولد فضاء يسوده التململ الذي يسبق التداعي، والاندثار وهو ما حدث فعلا، بعد أن تفه الاجتهاد، وحصر العلم كله في ملاسنات الحيض، والنفاس، ومسح الجوربين من تركه حيث ألفت في هذا الإطار الرسائل، والكتب الضخمة ظنا من هؤلاء أنّ المعركة الأصلية تبدأ من حيث بدأوا، فتاهَ علماء الأمة، وحادوا عما وجدوا له.

«إنّ التخلف بين الضمير، والعلم هو السبب المباشر في الانفصال الحادث في العالم الإسلامي"بصفين"، فالقرآن من حيث كونه نظاما فلسفيا كان علما يتجاوز في مداه آفات لضمير الجاهلي بطريقة فريدة، فنتج عن ذلك انفصال بين أولئك الذين استعبدتهم حمية الجاهلية وأفكارها الاجتماعية، وشرائط الحياة التي جاء بها القرآن ليمحوها محوًا من طبائع النّاس»[1]

فالهوة هنا بادية، وهي التي أفضت تداعياتها إلى ما عرفته "صفين" والناجمة عن سوء فهم لما جاء به القرآن كدستور للمسلمين، فأصبح بمثابة عامل انقسام بينهم، كل هذا ناتج عن صدمة أحدثت تحولا في تركيبة الإنسان المسلم، أو لنقل خللا كانت نتائجه متوقعة، ومنطقية لمقدمات فرضت نفسها على محيط هش.

«إنّ النهضة تكون فيما يبذله العالم الإسلامي من جهد في الميدان النفسي، هي حركة ضمير ليتدارك تخلفه عن الفكر القرآني وعن ركب الفكر العلمي الحديث»[2]

فالأساس العلمي لفكر الإنسان المسلم المبشر بالنهضة ينبغي أن يبنى على حقائق دافعة تضع القرآن كدستور إسلامي واف، وتشجع على تطوير المناهج العلمية لفهمه، ومحاولات تدارسه، فالمشكلة حسب "ابن نبي" أننا لم نستحدث مناهج علمية كفيلة بالكشف عن مكونات القرآن الكريم، ولم نجتهد حتى في محاولة فهمه، واستيعاب تجلياته، وأحكامه، ورؤاه ذات البعد الحضاري الأعمق.

---

[1] - "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي ص 139.

[2] - "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي ص 139.

فإذا ما أردنا أن نستفيد استفادة علمية من هذا الكاتب الجامع، كان علينا إحياء حركة دراساته، وأبحاثه في ميدان علوم القرآن والتفسير، وحتى فيما يتعلق بالأحكام فكل ما قدم إلى حد الآن يحتاج إلى تجديد، وإلى ضخ نفس آخر لإحداث وثبة حضارية أخرى، فلا بد من تعديل مناهج التفسير -على سبيل المثال- لأنها لم تعد تواكب هذا التغير في المعطيات الراهنة ولا حتى الفكر البشري ذاته فإنسان القرن الرابع الهجري ليس هو إنسان القرن الحادي والعشرين، لغة، وتفكيرًا ونمط حياة، وتركيبة نفسية...

«مشكلة التفسير القرآني على أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يُعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مرَّ بها العالم الإسلامي»[1]

إنّ "مالك بن نبي" وقف على نقطة هامة، وبنى عليها معالجته للأوضاع الراهنة، وهي ضرورة تجديد الرصيد الفكري، والحضاري للأمّة، وبعث نفس جديد وضخ دماء جديدة في جسدها حتى يمكننا النهوض والانبعاث بمعطيات أخرى، وبأهداف، وطموحات متجددة، وفقا للعصر الذي نعيش فيه ونرتبط به، فمن غير المقبول أن نبني حضارة في القرن الحادي والعشرين بروافد، وفلسفات ومعطيات لم تعد صالحة الآن وهو ما زكته التجربة، وفرضه الواقع.

«إنّ نجاح مسألة تحديث، وتعديل مناهج التفسير يعيد الصلة بين الإنسان، والإسلام، والعصر، فيتهيأ المناخ العقلي في ظل الفهم القرآني لتحصيل العلم، ولتطوير واقع الحياة بجانبيها الاجتماعي،

---

[1] - "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي ص 139.

والمادي، وينهى هذا التغني الممل الذي يفترضه بعض الناس إعلاءً لشأن القرآن الذي لا يحتاج لما يأتيه من مديح البشر طالما أنّ الله - تعالى- قد تعهد بحفظه، فكلما اكتشفت حقيقة علمية أو نجح عالم في إحداث اختراع يحاولون القول لقد تحدث القرآن عنه في سورة كذا»[1] فمن خلال هذه النظرة، يتأكد لنا أنّ الكثير من الفلسفات تتميز بالرجعية، إن لم نقل تحتكم إلى الردّة في إثراء تصوراتها.

إنّ القول بشأن كل ما اخترع أنه موجود في القرآن الكريم في سورة كذا.. وكذا هو تثبيط للإرادة الإنسانية الناجحة، والقرآن نفسه يثمن دور العلماء، وما يقومون، وميزهم عن كثير من عباده، والآية صريحة في هذا المقام: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾.

فإذا ما أرجعنا كل ابتكار، أو عمل مشهود إلى رافد واحد وهو القرآن الكريم -كما أشار الأستاذ أسعد السحمراني- فما جدوى أن يبذل هذا العالم جهودًا معتبرة، وأبحاثا معمقة ليجد الرجعيين والمثبطين، والذين في نفوسهم مرضُ يقولون: هذا موجود في سورة كذا، والآية كذا.. ألا خَسِئَ الدجالون! «إنّ القرآن لم يأت قطعا وبصورة شاملة، لا بالحساب العشري، ولا بالجبر، ولكنه يأتي بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور.. والأمر الجدير بالملاحظة هو أنّ تطور العلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب، بل بكل الظروف النفسية الاجتماعية التي تتكون في مناخ معين»[2]

---

[1] - "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 106.

[2]- "مالك بن نبي" .. إنتاج المستشرقين..مكتبة عمار للطباعة والنشر،القاهرة 1970 ص 37.

فالكتاب المنزل على عبده محمد–صلى الله عليه وسلم– المتشابه الشامل لكل ما سبقه من طروحات، ورسالات لم يكن في حقيقة الأمر مجرد آيات مرصوفة ومحددة بل أنّ ما يحمله أعمق من ذلك بكثير، فقد جاء ليضع القاطرة على السكة، ويقدم العلاج، والدليل ويطرح المشكلة من زاوية أخرى غير مسبوقة متجاوزا كل الفرضيات، والتخمينات، وواضعا نتائج قطعية لمقدمات وأسباب ترجح استعمال العقل، وتحفيزه ليكون له الدور المطلوب في مثل هذه الرهانات.

«فالقرآن في واقع الأمر ليس موسوعة في الرياضيات أو الطبيعيات، أو غيرها، بل هو قواعد لمنهج يربط وينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وفيه توفير لمناخ يحض على العلم والإبداع لأعمار الأرض، وإذا ما وردت فيه بعض معطيات العلوم، أوْ حقائق العلم، فإنّ ذكرها على سبيل المثال لا الحصر لفتح الآفاق أمام العلم، لا إقفال الأبواب بوجهه تحت حجة أنّ كل علم هو في القرآن، ويجب هجر ما سواه، ففي مثل هذا الطرح تجن على الإسلام الذي أعطى العقل دوره، وفتح للعلم طريقة، وأثاب المشتغل به»[1]

لقد أساء هؤلاء فهم الإسلام على حقيقته، وبالتالي تغييب دور الفرد الناجح، والمنتج امتدادًا للمعركة الحقيقية المكرسة للتبصر، والتفحص، والتقصي فيما جاء به القرآن الكريم من أحكام منها ما تعلق بفلسفة البناء الحضاري للأمّة الإسلامية، ومنها المتعلق بعلاقة هذا الفرد بربه القائمة على رابطة وثيقة مميزة تهيئه لاقتحام المعارك الحضارية، والحياتية بشيء من الثقة والاعتداد

[1]– "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 107.

بالنجاح وهو ما غيبته معظم الرسالات الأخرى، فكان منطقيا أن يكون القرآن منهجا فكريا سليما بحد ذاته يقوم على مخاطبة العقل، وتخليص الروح من الشوائب وتهذيبها نشدانا للتكامل، وليس الكمال الذي يقلص من هامش التغيير، والعمل، والبحث المستمر.

ولعل بروز هذه الخاصية الإسلامية في فكر "مالك بن نبي" ودأبه على مناقشتها ما يجعله رائدًا في طرحه، مخالفا لكل الاتجاهات التي حاولت حصار، وتهميش الأفكار النابضة بالجدّة، والساعية إلى التغيير المنتظر لأن المعالجة العلمية للمشكلات الكبرى هذه المرّة جاءت من فلسفة ثاقبة، وروافد ناجعة لمفكر ظلَّ لفترة كبيرة يعاني التهميش.

فالمفكر "مالك بن نبي" بدت نظرته مخالفة تماما لما هو سائد في فترة يميزها الانحدار، والشعور بالخيبة، غير أنّ هذا الشعور لم يحجب عن مفكرنا النظر، والتمحيص في دواخل المكملات التي كانت سببا في ظهور رجعية فكرية بسبب سوء فهم الدين الإسلامي لعوامل موضوعية، وأخرى غير ذلك قد يكون للاستعمار ضلع فيها.

«هكذا فهم "مالك بن نبي" الإسلام منقذا، والمسلم ممثلا، وشاهدًا، والطريق تحديث منهج التفسير، واللحاق بركب العلم فالإصلاح عنده بالعودة إلى مناخات يوفرها الإسلام كما كان الحال أيام السّلف الصالح»[1]

---

1 - "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 107.

[illegible] المستقلة [illegible]
[illegible] الفعالة [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] هو لما [illegible]
[illegible] انه [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

# الفصل الثالث

1 ـ مفهوم الحضارة وفلسفتها عند"ابن نبي"

2 ـ شروط الحضارة، ومحاورها.

# 1- مفهوم الحضارة، وفلسفتها "عند ابن نبي"

كما سبقت الإشارة إليه، فإنّ قيام حضارة ما، مرتبط دائما بوجود محفز حادث يحرك دواليب الفعل الحضاري ويهيئ الأرضية المناسبة لتأسيس الانطلاق.

والمحفز في نظر مفكرنا لا يكون إلا دافعا دينيا يكسر المعوقات، والحواجز التي تحشر الإنسان في متاهات الجهل، والخنوع، والسلبية الغارقة في ترسبات الأحكام المسبقة في غياب منهج علمي واضح صريح.

«إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان لأنها تضع حاجزًا بينه، وبين الهمجية»[1]

فهي منه على كل حال، تنتج عن تحريك كوامنه، واستثمار وتوفير الفضاءات المناسبة لها لتوجيهها الوجهة المناسبة، وهي عليه لكونها جهازا مناعيا يضعضع كل رغبة في الانكماش أو التكاسل، بل يدفعه دفعا إلى إثبات ذاته، ووجوده الفاعل من خلال المساهمة في حركية البناء المتكامل الذي يجسده مساهمة الأفراد كل من موقعه ليقوم هذا الصرح الحضاري ويحقق الإقلاع.

غير أنّ مفكرنا يؤسس لهذه الفكرة ضمن السياق الطبيعي لقانون الكون، أو ما عرّفه بالدورة الحضارية، فهناك حضارات تتهاوى وأخرى تقوم على أنقاضها وهكذا، فكل حضارة تمر بمرحلة جنينية هي مرحلة التبشير .أو الإعداد، ثم مرحلة طفولة، ثم قوة،

---

[1]- " محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة" ،التبيين عدد19.. ص89 .

ثم شيخوخة وضعف لتستمر هذه الدورة.

وموقعنا من كل هذا امتداد لمدى قدرتنا على إثبات نجاعة طروحاتنا ومدى صلاحيتها لأكبر فترة زمنية ممكنة.

إلا أنّ هذا القول كثيرًا ما انتقد بشأنه "مالك بن نبي" رغم وجود بعض الإشارات إلى هذه الفكرة في كثير من الفلسفات العالمية قديما، وحديثا.

يقول "محمد شاويش": «وفي اعتقادي أنّ فكرة الدورة الحضارية هذه هي في غاية العمومية والتجريد شأن أفكار فلسفة الحضارة، والتاريخ عموما، ولا يمكن البرهان القاطع على صحتها، أو خطئها، ومن هنا فهي ليست فكرة علمية بحصر المعنى، ولكن هذه الفكرة قادت "بن نبي" إلى تحليلات عميقة وخصبة لشروط النهضة الحضارية وهي متفرقة في كتبه، وكرّس لها كتابا خاصا هو "شروط النهضة"...»[1]

ومهما يكن من أمر، فالواقع أثبت صحة ما وصل إليه "مالك بن نبي"، فكل الحضارات العالمية عرفت حقبا تميزت بالقوة بعد التداعي، والإنزواء، وإن اختلفت فترة القوة من حضارة إلى أخرى إلاّ أنّ النتيجة واحدة ختامها هنة، وضعف، وفي تاريخنا الإسلامي ما يثبت هذه الفكرة، -فعلى سبيل المثال لا الحصر- "الدولة العثمانية" التي احتكرت سلطان القوة، وكانت بحق دولة عالمية لم تستطع أقوى الدول مقارعتها، والوقوف في وجهها حتى حان موعد زوالها، لينخرها الضعف، وتتشتت قواها.

غير أنّ هذا النموذج ليس هو القدوة، ولا فكرة "مالك بن نبي"

[1]- "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة، التبيين عدد19.. ص89 .

فكرة مطلقة، ومادام الإنسان هو الثابت الوحيد في هذا البناء، فنعتقد أنّ المشكلة بكاملها تكمن فيه وفي روافده، وتركيبته، فحتى وإن ثبتت فكرة الدورة الحضارية، فلأنّ الإنسان هو المكرس لها بفعل رجعيته، أو سوء تكوينه، وضعف إيمانه بإرادته، ونجاحه حيث نجد في فترة تداعي الحضارة الإسلامية أنّ إنسان هذه الفترة تميز بنقص إيمانه، واهتمامه بقشور الأشياء بدل القضايا الكبرى، ونكوصه عن الجهاد، وبروز أناه القنوط بصورة ملفتة للانتباه، وبالتالي نقول أنّ المعركة الحضارية بعيدًا عن قوانين الطبيعة التي من شأنها تثبيط العزائم، هي معركة الإنسان وحده، وتحقيق الفعل الحضاري المستمر القوي أمر ممكن ما توافرت الفضاءات الملائمة، واستمر الإنسان متشبعا بقدرته على النجاح، متشبثا بدوره الحضاري، مؤمنا بالله، متجاوزًا لكل حواجز ذاته النفسية، والسوسيولوجية. .

فحتى وإن كانت فكرة الدورة الحضارية رائدة إلا أنّ الإيمان المطلق بها يكرس ردّة أخرى تثبط كل محاولات الانطلاق، وبالتالي فهي نسبية إلى حد ما، مناقشة أبعادها من قبل مفكرنا كانت مناقشة علمية ذات أبعاد حضارية، فليس المقصود هو الفكرة ذاتها بل ما وراء الفكرة، وهو ما عبر عنه "ابن نبي" والفكرة لا تكون فكرة ما لم يعبر عنها كما يقول "كروتشه".

فالحضارة هي نتاج طبيعي لحركة اجتماعية واعية سهر على تجسيد خاصيتها، وفلسفتها في إثبات أحقيتها بالدور المنوط بها منهجا، ومسارًا، والغاية كل الغاية في تأصيلها، والعمل على التبشير بها، والتمكين لها ما استطاعت هذه الحركية الاجتماعية إلى ذلك سبيلا.

فالبعد الإنساني الشامل هدف من أهداف الحضارة الواعية ذات

الروافد المعرفية، والدينية، والعلائقية لأنّ التأثير، والتأثر عنصر وارد، ومحفز أيضا إذا ما تم أخذه بعين الاعتبار.

إنّ الجماعة البشرية الملائمة والمستعدة لتحريك الفعل الحضاري وإنشاء مجتمع «عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة فإنّ لها حياة دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة، وخلاصة القول:أنّ الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية وهو ما نطلق عليه اسم الحضارة»[1].

[1] - "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع.ص16.

# 2- شروط الحضارة ومحاورها

إنّ الأساس الذي تقوم عليه الحضارة في فكر "مالك بن نبي" ينطلق من ضرورة وجود إنسان قابل للتحريك، والمحاولة المستمرة للنجاح، يضاف إليه وجود حدود أو وحدة ترابية أو إقليم يمكن تأسيس الفعل الحضاري، إضافة إلى عامل الزمن بصفته عاملا مهما يحدد مدى نجاعة هذا الفعل، واستمراريته، فلكي نقيم حضارة لابد من توافر شروط ثلاثة هي:

- الإنسان.
- التراب.
- الوقت.

ويقابل هذه الشروط محاور ثلاثة لا يمكن القفز عليها أو تجاوزها أو إحداث تقديم أو تأخير فيها، وهي:

- تكوين عالم الأشخاص.
- تكوين عالم الأفكار.
- تكوين عالم الأشياء.

والعامل المهم في تركيب الشروط الثلاثة الأولى، والمحاور المتممة للبناء هو الدين الذي يقوم بدور المزج والتفعيل حسب "بن نبي" أو ما عبر عنه ب: "مركب الحضارة" الذي ليس في الإمكان تغييبه أو تهميش دوره فهو ثابت، ومؤكد.

يقول "محمد شاويش": «دور الدين إذن في الحضارة هو دور العامل المركب لعناصرها، واختفاء هذا الدور يعني تحلل هذه العناصر إلى وضع غير مركب، أي تحلل الحضارة.

و"ابن نبي" يرى أنّ هذه الفرضية تنطبق على جميع الحضارات فالحضارة الغربية في رأيه بنتها الفكرة المسيحية التي دفعت البداوة الجرمانية بعد ستة قرون من الإسلام إلى تكوين هذا الكيان الذي أسسه " شارلمان"»[1].

فالفكرة الدينية التي تعتبر حجر الأساس في كل بناء لا تقتصر على الحضارة الإسلامية وحدها، بل كل الحضارات القائمة والشاهدة حتى الآن على صدق هذا المنطق سواء كانت مسيحية، أو شيوعية، أو غير ذلك.

المهم أنّ الرّاهن الحضاري أثبت في أكثر من مناسبة صحة فرضية "مالك بن نبي" مما يعني ارتباط أي بناء أو نهضة ارتباطا وثيقا بالجانب الخفي الآخر للروح البشرية، الجانب الديني للشعوب القائمة على تقديس الدين، والجانب المثيولوجي للشعوب ذات الخاصية الدينية المحدودة، والمعطيات المختلفة عن غيرها من الشعوب الأخرى.

فالظاهر مثلا أن الشيوعية لم تحركها الفكرة الدينية -كما اعتقدنا سابقا- غير أن "مالك بن نبي" يرى أنها لم تشذ عن القاعدة، وفلسفتها قامت على أساس ديني، وإنّما منظور مخالف لخاصيتها العربية الإسلامية فها هو يقول: «تعتبر الشيوعية النظرية قبل كل شيء فكرة "ماركس" ولكن هناك شيوعية واقعية هي في جوهرها نشاط المؤمنين في مختلف العصور، أولئك الذين شهدوا مولد الحضارات فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي، ومحدّدة هنا، وهناك بنفس سلوك الفرد حيال مشاكل المجتمع الناتج»[2]

1- "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة ،التبيين عدد19.. ص89.

2- المرجع نفسه ص54.

لقد حاول "ابن نبي" إيجاد الصيغة الملائمة لبلورة فكرته القائمة على وجود المركب الحضاري المتمثل في الفكرة الدينية التي توجد الفرص المعززة للتفاعل الكهرو-حضاري المولد للمشهد المرغوب فيه من قبل فئة أو جماعة تنطبق عليها صفة التغيير نحو الأفضل والفاعلية.

فإذا ما انكفأت جماعة ما يربطها وازع ديني هادف ومنسجم مع تطلعاتها، وآفاقها، وحققت الانسجام المطلوب الذي تنشده الفكرة الدينية، فقد غيرت من وضعها السلبي نحو المجاوزة، والمبادرة، والتأسيس لمشهد معين من المشاهد الحضارية المنبثقة، والمتألقة تنعكس عليه خاصية الجماعة الأولى- المنطلق.

إذ أحدثت تلك الرغبة الناشئة عن المحفز الديني، وثبة مطلوبة أدَّت إلى تقليص هوامش الانكفاء على الذات، والشعور بالضعف وأحيانا باللاجدوى، لتنتج واقعا مغايرًا بمعطيات جديدة، وبأسلوب تواق إلى فضاءات حضارية أرحب، وأوسع بعد تجاوز المرحلة الصعبة، والمهمة في نفس الوقت.

يقول "مالك بن نبي": «تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية تلك التي تطبع حياة الإنسان، وعمله على وجه البسيطة»[1]

---

[1]- "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع. ص56

# محـــاور الحضارة وأبعادها

# 1- تكوين عالم الأشخاص

ينطلق "ابن نبي" في معالجة هذا المحور من زاويتين مختلفتين إحداهما تتعلق بموقع الإنسان، وعلاقاته في مجتمعه، والثانية تتعلق بالإنسان ذاته.

فالفلسفة التي يقوم عليها هذا المحور تنطلق من ضرورة إيجاد مناخ اجتماعي متلاحم، ومنسجم ضمن شبكة علاقات قائمة على التفاهم والرغبة في مساعدة الآخر، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيق ما نصبوا إليه في ظل مجتمع يسوده التفكك والانحلال، غير أنّ السؤال المطروح الآن: كيف يمكن تجسيد هذه اللحمة؟

يوجهنا "ابن نبي" في هذا الصياغ إلى الفكرة التي انطلق منها أساسا لتجسيد أي فعل حضاري، أي الفكرة الدينية فهي بوسعها القضاء على الشوائب والعلائق التي تساهم في تفتيت المجتمع، وتثبيط عامل التواصل، والانسجام، والتواؤم الخلاق وهنا يبرز الدّور المهم لعنصر الدين، فلا يمكن تصوّر انطلاقة ما، أو انبثاق حضارة من وسط اجتماعي متهالك، ومفكك يحمل بذور تداعيه حتى قبل أن يولد. ويضرب لنا مثلا في هذا الإطار بما فعله الرسول الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي وضع نصب عينيه تحقيق التواصل، والتراحم، والتآخي بين المؤمنين كنواة أولى لمجتمع صالح، ناجح «...كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»

- حديث شريف-

إنّ الغاية من كل هذا تكريس قاعدة صلبة لا تخلخلها عوامل التهرية، والتعرية المواكبة لكل فعل حضاري نظير عامل الزمن الذي يصب في هذا المنحى، فالتجربة أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أنّ من أسباب تلاشي كثير من الحضارات، غياب الانسجام بين مكوناتها المجتمعاتية عقيدة، وتقليدًا، ونمط حياة، وهو ما يجعلنا نقف وقفة تقدير لما وصل إليه مفكرنا في هذا المحور، فالمعركة كل المعركة هي البناء المجتمعي القائم على التكامل، والتفاعل الإيجابي، وكل بناء يلغي من حساباته هذا العامل، محكوم عليه بالتداعي والانهيار.

وها هو "ابن نبي" يذكرنا بالحديث الشريف: «توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها، قيل أومن قلة يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل»

فالمشكلة أساسا ليست في الكثرة بقدر ما هي قوة اللحمة والرابطة التي تعصم المجتمع من الانحدار المفضي إلى الهلاك: «لقد كان هذا الحديث ضربا من التنبؤ والاستحضار: استحضار صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، أي عندما لا يعود مجتمعا بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل»[1]

فالفرد الذي تقوم عليه الحضارة لا ينبغي أن يكون فردانيا في تفكيره، وفي تكوينه، وفلسفته، وإنما يجب أن يدرك تمام الإدراك أنه ضمن نسيج اجتماعي قائم على التكامل، والتفاعل، والإنتاج فالشمولية في مفهومها الإيجابي هي الرصيد الذي يستطيع المجتمع من خلاله تأكيد، وتعزيز قدراته العملية، والعلمية

---

[1] - المصدر نفسه ص26.

والإنتاجية التي تصب في أتون التفعيل الحضاري المنسجم.

أمّا الجانب الثاني فهو ذلك المتعلق بالفرد ذاته ككيان له مميزاته، وقدراته، معتقداته، وكوامنه، وهذا العنصر أو الجانب هو الذي ينفذ من خلاله الإنسان إلى إبراز دوره ضمن النسيج الاجتماعي الرّاهن بما اكتسب من ثقافة، ووعي، وخبرات بعد أن يدرك دوره الحقيقي والفاعل.

«والثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد ويقدم له الروابط الاجتماعية»[1]

كما يدخل في هذا التركيب مجموعة من العوامل النفسية، والبيولوجية التي تبحث عن فضاء يحقق له ما ترغب في تفريغه أو إفضائه ويعطي لها هامشا عمليا محفزًا ومنشطا كغطاء عملي مشروع بما يتوافق والفلسفة المعتمدة، والموجهة لمسار البناء الحضاري الذي يقوم عليه نظام المجتمع كوحدة إنتاجية لها خاصيتها.

لقد وقف "ابن نبي" مطولا عند هذا المحور، وكرس له كل اهتماماته لأن البداية تنطلق من هنا، فالمجتمع المبدع الخلاق الذي يستطيع تحقيق الوثبة الحضارية المطلوبة، مجتمع يقوم على فلسفة سد الثغرات المؤدية إلى تفتيته، ويسعى إلى تهيئة أفراده تهيئة مناعية ضد الانشقاقات، والتداعيات الموبوءة المؤدية إلى الهاوية والتاريخ قدّم لنا كثيرًا من النماذج، وفي الحالتين، فعن النموذج الأول نجد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي المبني على التراحم، والانسجام والتكافل، حيث كان من نتاج ذلك قيام حضارة كبرى

[1] - "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة".. التبيين عدد19.. ص91.

في ظرف زمني قصير بعد مرحلة وهن، وضعف.

أما عن النموذج الثاني، فالأمثلة كثيرة في هذا المضمار أهمها ما عرفته الدولة العباسية أيام انحطاطها من تفكك، وتناحر، وشيوع للجريمة والفاحشة، وغياب العدل، وهو ما عرفته الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة لأنّ فلسفة الكيان الاجتماعي تلاشت، وأدت إلى تدهور العلاقات، وغياب الانسجام والشعور بالمسؤولية الاجتماعية فكان من الطبيعي اندثار هذه الدولة في غياب وتراجع الوازع الديني الذي كثيرًا ما أسهم في تجديد، وبعث هذه الأنسجة الاجتماعية مرتبطة ببعضها البعض، والنتيجة في النهاية واحدة.

## 2- تكوين عالم الأفكار

هو المحور الأوسط في تشكيل المشروع الحضاري ذي الأقطاب الثلاثة، وما يميز هذا المنطلق أنّ الرافدين اللذين يؤسسانه أحدهما مرتبط بالمحور السابق الذي يدخل في تركيب شخصية الفرد الذي يعتبر مفتاح الحضارة نمثل البواعث الدينية التي تعتبر في المسار العام لهذا مرجعا لا يمكن الحياد عنه، أو إقفاله.

أمّا الثاني فهو الداخل في القدرة على الاكتساب، ومدى ما تقدمه الفلسفات العلمية، والثقافية من محفزات للطاقة الاستيعابية للفرد – المشروع– يدخل في هذا المنحى أيضا المكتسبات السابقة اللصيقة بمستوى الفرد، والمميزة له، غير أنّ الثقافة ليست هي الخبرات العلمية دائما، فهي تختلف من مجتمع إلى مجتمع، أمّا العلوم والخبرات العلمية فإنّ لها نقاطا، وأسسا، ونظريات مشتركة، وإن اختلفت وسيلة، أو طريقة اكتسابها من منهج إلى آخر إلا أن التجربة العلمية في الحالتين لها نفس البعد، والنتيجة.

إنّ فهم "مالك بن نبي" للثقافة يختلف عن المفاهيم الكلاسيكية المعروفة، فهو يراها ذلك الكم المتراكب من الصفات، والقيم، والخصائص المكتسبة طيلة مرحلة زمنية تقاس بحياة الفرد المتواجد داخل محيط أو نسيج اجتماعي، فهي: «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه، وشخصيته، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهكذا نرى أنّ هذا التعريف يضم بين دفتيه الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان، ومعطيات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد»[1]

إنّ الثقافة بهذا المفهوم هي الرّاصد الأولي الدّافع إلى المبادرة، والحاجة إلى التغيير، وإثبات الشخصية الاجتماعية لمجتمع ما، والتي لا تكون إلا حضارة ترتبط أيما ارتباط بالرصيد، فهو المنطلق، والمحفز، والموجه نحو اكتساح ميدان التنافس، ولا شك في أنّ من أسباب تداعي حضارتنا الانبهار بثقافات الأمم الأخرى، والانسلاخ عن قيمنا، ومقوماتنا، وثقافتنا المعبرة عن الهوية بمفهومها الشامل.

يقول د/ "علي أسعد السحمراني": «فالثقافة هي المهد المنشئ لشخصية الإنسان، تفرض عليه قيمها وقواعدها، وبالغزو الثقافي الأوربي ازدادت حركة الاغتراب، وقوي نفوذ الاستعمار الذي

---

[1] - المرجع نفسه ص83.

استقر في عمق قناعات بعض الناس بتأثير من الفكر الأوربي»[1] وعليه، كان من الضروري استثمار هذه النقطة التي يرى" ابن نبي" أنها مشكلة المشكلات، تدخل في تنشئة الفرد الأولى، وفي منطق تفكيره، وفي عوامل اكتسابه للخبرات العلمية، وحتى في نمط حياته كيفما كان، والحال إذن هو العمل الدائب على تثمين المركب الثقافي للفرد الذي نسعى إلى إثراء أفكاره، وتكوينه دون أن نحدث فجوة، أو انفصاما في مكتسباته جميعها حتى تكون الدعامة المثلى لكل نهضة مبدؤها الاستفادة من الأخطاء السابقة الموغلة في تهميش القيم، والمكتسبات الحضارية.

فالثقافة كمكتسبات من شأنها تحصين الفرد، وتقوية مناعته ضد المثبطات من جهة، وضد الاكتساح أو الاستعمار الناشئ عن الذوبان في فلسفة حضارية أخرى تنتهي بالسيطرة والاستلاب المؤدي إلى تغييب مهمة الفرد الأساسية في المجتمع المسلوب، وما يتبع ذلك من ترد، واضمحلال للهوية، أو الخاصية التي كان للبعد الثقافي دور في الحفاظ عليها، مما يعطي مناخا ذا صبغة استعمارية تتسرب بفعل الزمن، والمنهج المدروس إلى دواخل الأفراد لنجد أنفسنا بعد مرحلة من التضليل، قد أصبحنا أكثر قابلية للاستعمار وأكثر قدرة على التكيف مع ما يأتي به، وهو ما كان يبدو أشد غرابة عنا في مرحلة سابقة، مما يفسر الفترة الزمنية الطويلة جدًا التي بقي فيها الاستعمار في الجزائر إذ جاوزت القرن وربعا، فالمستعمر الفرنسي نجح في التغلغل إلى فضاءاتنا المتميزة والمحصنة وتمكن من السيطرة على تفكيرنا، وسلوكنا،

---

[1] - "د/ أسعد السحمراني".. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 206.

وحتى مقوماتنا بفعل الخطة الاستعمارية الناجحة، والراغبة في طمس كل الملامح، والصفات المكونة للفرد الجزائري في تلك الحقبة.

إنّ قراءتنا المتعمقة لمحور تكوين الأشخاص يجعلنا نقر أنّ فلسفة البناء لدى فكر "مالك بن نبي" توظف مجموعة من المفاهيم الواقعية والتي من الواجب أن يتم غرسها في الفرد الذي يحرك هذا المشروع من أمثلة ذلك أنْ يدرك تمام الإدراك أنه قبل المطالبة بالحقوق عليه القيام بالواجبات فالوسيلة الوحيدة لتحصيل الحق هي القيام بالواجب، وليس العكس، والوصول إلى هذه النقطة من المفاهيمية المكرسة في اللاشعور الفردي لا يكون إلا بإعداد متناسق وتحفيز مستمر حتى يعلم كل فرد حقيقة المعركة المنتظرة معركة النهضة، والانبعاث، والتشيؤ الحضاري بأبعاده، ومتطلباته.

إنّ هذه الرؤيا المتألقة لمفكرنا لو طبقناها كمعامل حضاري على مجتمع ما كالجزائر مثلا، لوجدنا الأسباب الكامنة وراء التراجع الذي يعرفه وطننا كقوة إقليمية، وحضارية تعيش مرحلة صعبة هي مرحلة ما بعد الحضارة.

فالفرد الجزائري من أشْرَهِ الأجناس البشرية مطالبة بالحقوق، ولكنه في مقابل ذلك لا يقوم بواجبه على أحسن وجه، أو ربما لم يؤده مطلقا، وهنا تبرز المفارقة، وتتأكد رؤيا "مالك بن نبي" فيما هو سائد الآن، بل إنّ الشعور أو الإحساس بمسؤولية الدور الذي يمارسه الفرد غائب تماما مهما كانت طبقته، أو درجة تحصيله العلمي، أو مستواه الثقافي ولا تكاد تجد نسبة 10% من الأفراد الذين في وسعهم تحقيق الإقلاع الاقتصادي، وتجاوز المرحلة الراهنة الصعبة رغم الإمكانيات الاقتصادية المتاحة والكامنة،

والتي غالبا ما حركت مطامع الدول الكبرى.

إنّ المشهد الماثل أمامنا كنموذج لمجتمع ما بعد الحضارة يقر أهمية محور تكوين الأشخاص من مبدأ إحساسهم ووعيهم بدورهم الكامل، ومسؤوليتهم في نفس الوقت عن الأوضاع المتردية التي يعيشونها، وهو ما نؤكده الآية الكريمة: ﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

فالإقلاع النموذجي يكون من الداخل بدءًا بذواتنا، وتركيباتنا النفسية والشعورية التي ينبغي أن تتغير، وتحيد عن منحاها السلبي نحو الإيجابية المكملة، والمتممة لأجزائها بغية تجسيد الكل.

إنّ الشعور السائد بالإحباط المولد لتفاسير، وآراء تصب كلها في نطاق الخمول، والبحث عن الرجل المنتظر، أو النظام الاقتصادي المنشود، أو السياسة المطلوبة، كلها مجرد نزوات لا تقدم ولا تؤخر ببساطة لأنّ المشكلة الأساسية فينا، لا في فلسفة الأنظمة والنظريات الاقتصادية، ومادام المشكل كذلك، فلن نصل ولو نهجنا كل المناهج الاقتصادية، والسياسية المتألقة في العالم، بل أننا نضيع وقتنا سفها، وكذبا على أنفسنا، وذواتنا الواهمة، المتشبثة بألوية من فراغ.يقول "محمد شاويش": «ومن هنا فإنّ مجتمعنا بحاجة إلى ثورة نهضوية سليمة داخلية تأتي من أسفل لا من أعلى، وهي بلا شك إن قامت ستجبر البناء الفوقي على أن يتماثل معها وهذا معنى الحديث الشريف: «كما تكونوا يولىَّ عليكم»[1]

إذن، فالمبدأ الباعث على تغيير الواقع نحو الأفضل، قوامه الفرد

[1] - "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة".. التبيين عدد19.. ص95.

الذي عنـــي به" مالك بن نبي" عناية فائقة، فهو أهــم مشـــــروع على الإطلاق في معركة البناء، ووقوف مفكرنا على هذا المبـــدأ، والتركيز عليه لم يكن وليد تخمين عابر، وغنمــا جـــاء كنتيجـــة لدراسات معمقة، ودقيقة ما كان لها أن تتأكد لولا الاهتمام البـــالغ من قبل "مالك بن نبي" بها، وإلحاحه الشديد على أن نقطة البـــدء في كل مسار له أبعاد حضارية تنشأ من مـــدى وعـــي الإنســـان لرسالته، ودوره في الكيان الاجتماعي الذي يحيط به فـــي نســـق علائقي متفاعل بعيدًا عن الانعزال، أو الفردانية المفرغة لإنســـان من خاصيته الفاعلة، وقيمه الاجتماعية المبنية على ثقافة ناجعة.

«لا ننتظر التغيير إذا كمنجز لقوة خارجة عنا:شخص أو دولة، أو وصفة جاهزة وحيدة تحل المشاكل في طرفة عين. وكما قـــال بن نبي-رحمه الله-: لاشك في أنّ عقائدنا السياسية تدين لتلك القيم الفاسدة للحضارة تلك العقائد التي تمثلت عندنا اليوم في أسطورة: "الشيء الوحيد"، و"الرجل الوحيد" الذي ينقذنا...

فالتاجـــر الـــذي تنجح تجارتـــه يجزم بلا تردد بـــأنّ النجـــاة في الاقتصاد وآخرون يرون الشيء الوحيد في البيان، وتزويـــق الكلام، وهكذا ننتقل من وهم لنتخبـــط في وهم، ولا ندري كــــم من السنين سوف نقضيها لندرك عجز "الأشياء الوحيدة" عن حـــل المشكلة التي هي مشكلة الحضارة أولا، وقبل كل شيء»[1]

هنا يضيف "ابن نبي" فكرة أخرى تتمثل في ضرورة أن نكيـــف قدراتنـــا على تقنيـــة إيجاد البدائـــل والحلول بدلا من حصـــرها في زاوية واحدة تفضي إلى صدمة لسنا بمنـــأى عنهـــا، ففلســـفة "الرجل الوحيد" التي تبنتها الكثير من الأنظمة العربية كانت وبالا،

[1] - "مالك بن نبي".. شروط النهضة ص158.

وشرًا مستطيرًا، فمبجرد ذهاب أو وفاة هذا الواحد الأوحد تتهاوى الأمّة، ويستباح المحظور وتخر القوى، وكأنّ هذا الفرد ذاته هو المشروع الحضاري بعينه.

والمؤكد هو أنّ استمرار الفكرة، وفعاليتها هو المؤشر الحقيقي، والوحيد على مدى قوة، وامتداد هذه الحضارة، أو تلك، وليس من العلمية في شيء ربط مصير أمّة، أو مجتمع بشخص -وإن كان يحمل الهم الحضاري- فبمجرد نهاية هذا الشخص المحتومة ينفرط العقد، ويتهاوى البناء، فهل المعركة الحضارية معركة شخص، أم فكرة، أم كليهما معا؟!لقد حاول "مالك بن نبي" الربط بين هذين الوجهتين على فرضية التكامل، غير أنّ فلسفة الفكرة قائمة ومستمرة كشرط لبروزها، فهي مسار لا متناه ومتجدد في نفس الوقت بما يخدم التحولات الكبرى والمعطيات الراهنة التي يتفاعل معها المشروع الحضاري من وجهة المسايرة العلمية لها، فالزمن يتسارع، وتتسارع معه حركة البناء، والتطور بصفة شاملة، ومذهلة تجعل من أمر الواقعية، والمواءمة أمرًا حتميا لا محيد عنه لأنّ «من لا يعيش الواقع لا واقع له» كما يقول "ابن قيم الجوزية"، فالمعطيات إذن تتغير، والموقف يتطلب المرونة الكافية لتدارك التأخر الناجم عن هذا التغير الذي يبقى ظاهرة صحية تدل على سلامة المسار الحضاري المتبع، لأنّ التطور في حد ذاته صفة طبيعية ملازمة لهذا المسار.

أكيد أنّ ما يقتضيه المشروع النهضوي من مرونة واكتساب للمبدأ الأساسي كفكرة، وكمنطلق من قبل الفرد، كفيل بالإيغال في مكنونات المبادئ والقيم والأفكار التي من المفترض أن يكون

الفرد وسيلة تكريسها، بعد استيعابها منتجا، لا استيعابا جاهزًا، فالجاهزية لا تخدم المبدأ، ولا تتسع لاستخدام العقل، وبالتالي تهميش الخلق والإبداع، والقدرات التي يتمتع بها الإنسان ونحن أحوج ما نكون إليها، فالأصل ليس الحل، وإنما تقنية، وطريقة التحليل وفق منهج سليم، وأسس علمية مدروسة، مما يدعونا إلى التركيز على أهمية المكتسبات الثقافية التي تنمي هذه الصفات، وتوفر لها المناخ المناسب الذي يربط بين أجزاء التركيبة السوسيو-ثقافية للإنسان المتجدد، لأنّ «دور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولا، وبالذات، فهي الأتون الذي تصهر فيه كل العناصر الأساسية الداخلة في تركيبة المشروع الحضاري الذي منطلقه، ومبدؤه الفرد في نطاق الجماعة. تحتل الثقافة مرتبة رئيسية في تكوين الفرد وبناء شخصيته، فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره، وتطلعاته، والذي تتحدد فيه قيمه وأهدافه.. هي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي، وهي التي تعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل دون أفضليات، فالثقافة تنمي الجانب المعنوي في الإنسان والمجتمع بمستوى متوازن كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد»[1]

وحتى يتفاعل هذا المزيج، فلا بد أن يستمد قوته من الانسجام الحاصل بين المكتسبات السابقة والتطلعات السياسية كمصب واحد قائم على تحقيق الهدف الأسمى المرتقب، فنكون بذلك قد أوجدنا المناخ الملائم، والأرضية المناسبة للشروع في خطوات عملية

---

[1]- "مالك بن نبي" ..آفاق جزائرية ت /الطيب شريف،مكتبة النهضة الجزائرية،بدون تاريخ ص137.

عملاقة وإن بدت للوهلة الأولى بطيئة، ولكنها تصل في آخر المطاف إلى تجسيد الهدف دون هنات، أو ردّة، أو انحراف من شأنه تقويض كل ما تم التخطيط له شرط أن تتناسب التوجهات السياسية مع الخاصية الاجتماعية من عادات، وقيم، وواقع يختلف عن المجتمعات الأخرى، فالأولوية كل الأولوية لترجيح المعطيات المحلية التي تبنى على أساسها الافتراضات، والأهداف السياسية حتى لا تصاب تطلعاتنا بالشلل، والنكوص نتيجة للتناقض الحاصل بين الأهداف، والمعطيات الراهنة مما يعني أننا زرعنا أسباب الفشل بمجرد إلغاء هذه النقطة من حساباتنا، وبالتالي فمن الضروري التوجه مباشرة إلى عملية الربط بين الأهداف السياسية، والمقومات الاجتماعية، والأخذ بعين الاعتبار كل ما من شأنه تحقيق التناسق بينهما على أساس المرجعية الثقافية.

«لابُدَّ أن نعرف الثقافة على أنها توجه الطاقات الفردية لتحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة إلى مصلحته، ولتحقيق مكانة في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع.. أمّا السياسة فإننا نحددها على أنها توجيه الطاقات الاجتماعية لتحقيق بناء المجتمع في الداخل، وتحقيق مكانة في الخارج، على أننا حينما نحلل الطاقات الاجتماعية بصفة عامة نرى أنها تتضمن أولا وقبل كل شيء الفرد كأداة، وهدف، فالطاقات الاجتماعية تنبع من الفرد وتعود إليه..

إذن هناك تضامن بين الثقافة، والسياسة، وليس ترتيبا، وأسبقية.. والتوفيق بين الثقافة والسياسة يتحقق عن طريق الفرد

لأنه هو العنصر الواعي الموجه للطاقات الاجتماعية»[1]

وعموما، فإنّ التركيبة الفكرية للفرد الواعي ينبغي أن تحقق الانسجام بين ما اكتسبه الفرد من قيم، ومبادئ، وعادات، وبين ما يمكن أن يكسبه من خيرات، ومعارف مع إيجاد الفضاء السياسي الذي لا يتناقض مع هذه المعطيات حتى لا نخلق ذريعة للفشل، ولا يحدث الانفصام المفضي إلى تلاشي الأهداف المرسومة مسبقا، وهو ما يثبته واقع الأمّة العربية اليوم.

## 3- تكوين عالم الأشياء

وهي المرحلة الأخيرة من مراحل التأسيس الحضاري بوصفها ثمرة للجهود البالغة المبذولة في رأب الانفصام المميز لإنسان ما بعد الحضارة الخاضع للأهواء، التائه في بؤر البحث عن مخارج تبدو مستحيلة من حقبته الكاسدة.

إنّ هذا المحور يأتي ترجمة لنجاعة المناهج المعتمدة في تكوين الأشخاص أولا، ثم تكوين الأفكار المتولدة بدورها عن المرحلة السابقة، والمنسجمة مع مبادئها، وأهدافها الرامية إلى إحداث نقلة نوعية في مسار المجتمع الباحث عن نفسه، بعد الإعداد، والتوجيه السليم القائم على مناهج علمية كفيلة بوضع المقدمات تمهيدًا للنتائج.

فالتوجيه عند "مالك بن نبي": «قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت، فلم

تحقق هدفها حين زاحمتهما قوى أخرى صادرة عن نفس المصدر متجهة إلى نفس الهدف! فالتوجيه هو إدارة ملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية، والإنتاجية المناسبة لكل واحد من هذه الملايين...»[1]

ثمة عنصر مهم ثمنه "مالك بن نبي"، عنصر قائم على علاقة النجاعة بالتوجيه، حتى لا يحيد البناء عما رسم له في حدود الفلسفة العامة التي يقوم عليها، لأنّ تغييب التوجيه يكون في غير صالح المجتمع بما يفتح من هوامش لا يمكن التحكم فيها، أو مراقبتها، وقد تصبح تهديدًا موقوتا من شأنه أن يزلزل القواعد العامة، والأساسية التي يقوم عليها أي مشروع.

لقد وصل المشهد الحضاري في مرحلة تكوين عالم الأشياء إلى آخر مقتضيات. الإقلاع والنهضة –في نظر بن نبي– ولا بد عندها من منطق عملي رأس ماله الفاعلية اللازمة، والمفروضة في نفس الوقت، وإلا كان المشهد خاليا من كل بوادر النهضة.

«إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرًا من اللافاعلية في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهازلة.

وإذا ما أردنا حصرًا لهذه القضية، فإننا نرى سببها الأصيل في اعتقادنا، الضابط الذي يربط بين عمل، وهدفه، بين سياسة، ووسائلها بين ثقافة، ومثلها، بين فكرة وتحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا»[2]

---

[1] - "مالك بن نبي".. شروط النهضة ص78.

[2] - المصدر نفسه ص96.

فالمنطق العملي فلسفة نجاح قائمة على فعل الاستفادة من الأخطاء السابقة أولا، ثم السعي العملي المباشر إلى تثبيتها كمفهوم صارم الدلالة، والبعد، حتى يتسنى القضاء على غول اللافاعلية، فهو أهم المعوقات التي تقف في وجه أي مشروع خاصة في البيئة العربية الإسلامية نظرًا لغياب رؤيا شاملة، وفعالة للقضاء على الركود الذي لن يكون إلا بتغليب المنطق العملي المؤسس على فرضيات مدروسة، ومقننة، وموجهة في الوقت ذاته، لتكون بمثابة الدعم المتنامي، ونقطة القوة لأي مشروع يقول "ابن نبي": «إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع، والتاريخ، وإذا سكن الإنسان، سكن المجتمع، والتاريخ، ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ.

فنرى المجتمع حينا يزخر بوجود النشاط، وتزدهر فيه الحضارة وأحيانا نراه ساكنا لا يتحرك يسوده الكساد، وتغمره الظلمات.. على أنني حينما أرى في حركة التاريخ، حركة الإنسان وفي ركوده، فإنّ ذلك يضعني أمام مشكلة تتصنف تحت عنوان الفعالية، فعالية الإنسان في التاريخ»[1]

فالاستدلال هنا تاريخي محض، وقوته من قطيعة النتائج المتوصل إليها، فقد أثبت التاريخ بما لا يدع مجالا للريبة أنّ النجاعة المطلوبة لا تتحقق، ولا تخرج عن إطار الأولوية المكرسة للمنطق العملي كصفة ثابتة في أي مشهد نهضوي ناجح.

إنّ الإرادة التي يملكها الفرد قابلة للتجديد، والتحفيز المتواصل بما تقتضيه المتطلبات الراهنة، وفق المنطق السابق بحيث يصبح الفرد الذي تم تكوينه كفكرة، وكمشروع قادرًا على تقمص هذا

الدور وأدائه بصورة طبيعية نابعة من الشعور الداخلي، والتفاعل الإيجابي الصادق باعتباره مكونا ثابتا في ذات هذا الفرد المنسجم مع المسار والخطوط العامة، والعريضة الموضوعة على خلفية سياسية أو نظام، أو رؤيا قبلية حسب طبيعة المجتمع، وخصائصه، ونمط تفكيره.

فالمرحلة الأخيرة من مراحل التشيؤ الحضاري هي حركية العمل والنتاج، فالعمل ضرورة، وواجب يكرس مبدأ التغيير من جهة، ويحقق ذات الإنسان من جهة أخرى نظير حاجاته، ونظامه الحياتي القائم على ضرورات بيولوجية، واجتماعية من شأن العمل إشباعها وتحقيقها.

فالإنسان يعمل لإثبات ذاته، وإشباع حاجته و« بداع من طبيعته من أجل تقدمه، فهو إذن مزود بسلطة مزدوجة، ولكن التكليف هوالذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة بحيث يكون العمل على الغرائز واندماجها مطابقا لرسالته الاجتماعية، ومن هذا التركيب ينتج نظام الأفعال الاجتماعية المنعكسة»[1]

إنّ شعور الفرد بضرورة إنتاجه لما يستهلكه، وتجاوز ذلك إلى تصدير الفعل الإنتاجي، هو ما يطبع الفرد المنشود الذي يكون عنصر النهضة الحقيقية، وليس العكس، فالاعتماد على ما هو آت، أو ما هو جاهز يشكل لنا في النهاية مجتمعا مستهلكا لا منتجا، وهو حال الأمّة العربية والإسلامية جمعاء (فالويل لأمّة لا تأكل مما تنتج) وعليه، فمن الأبعاد الحضارية المهمة للشروع في تغيير، أو تجسيد نهضة ما، البعد الهادف

[1]– "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع. ص65.

إلى تمرس الرغبة في الاكتفاء، والاعتماد على النفس لإشباع مختلف الحاجات بدل الانتظار والتقاعس المفضي إلى إلغاء محور تكوين عالم الأشياء من موروثنا الحضاري المنشود، وإنما الغاية الأساسية أن نمكن لذواتنا من خلال الإيمان بطاقات الأمّة، إمكانيات كل فرد من أفرادها. «فالإمكان الاجتماعي هو الذي يقرر مصير الشعوب، والمجتمعات، والدول»[1]

والواقع أثبت أنّ الإرادة الواعية طريق النجاة، والنجاح، ما تم توجيهها، وتحفيزها.

«فكل شعب يحب أن يصنع تاريخه بوسائله الخاصة، وبأيديه ذاتها، والتاريخ في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه، إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء، والأشخاص، والأفكار المتاحة، في ذلك الحين بالذات، أي في نفس الأوان الذي يواكبه عملية إنجازه»[2]

الانطلاقة ذات الخاصية المحلية للموروث الاجتماعي هي البعد الآخر للبناء الحضاري متحررة من التأثيرات الجانبية أو الأجنبية الواغلة في المادية، والتهجين والباعثة على الانبهار المشبوه الذي كلف المجتمع العربي والإسلامي بصفة عامة ركودا اقتصاديا مهولا، فأصبحت أسواق هذه الأمّة مرتعا للمنتجات الأجنبية، وأحدثت بذلك شرخا في الطبقة العاملة، وبالتالي شيوع البطالة المقنعة، ووصلنا إلى مرفأ التكديس بدلا من التكوين الناجع، والإنتاج المؤسس على رؤى من صميم التجربة الاجتماعية، فالحضارة تكوين وليست تكديسًا كما يقول

---

1- "مالك بن نبي".. المسلم في عالم الاقتصاد،دار الفكر دمشق 1979،ص 76.

2- "مالك بن نبي" ..آفاق جزائرية ص 161.

"ابن نبي": «إنّ علينا أن ندرك بأنّ تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة.. فالحضارة هي التي تكون منتجاتها، ليست المنتجات هي التي تكون النتائج، وليس العكس، فالغلط منطقي، ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة، فإننا سنبقى ألف سنة، ونحن نكدس، ثم لا نخرج بشيء»[1]

إنّ المرجعية المعززة للفرد المنتج في هذا الكم الهائل من المرجعيات، يفترض أن تكون مصبوغة بصبغة المجتمع الذي تنطلق منه، ومطبوعة بشخصيته حتى لا تنتج ما لا يتلاءم والخاصية العامة للمجتمع، أو المحيط الذي نعيش فيه. فالشخصية الإنتاجية مرادف كمي لمقتضيات النوعية، والمنطق العملي، وهذا التطابق بالمفهوم الاقتصادي للكلمة يجعل فعل التكوين، الإنتاج، الإبداع الصناعي أمرًا ممكنا، ومتوقعا في أي حقبة من حقبات البناء، والممارسة الإنتاجية المنبثقة عن مرجعيات لها أصولها، ورصيدها، وقواعدها التي تقوم عليها، كمبدأ ثابت لا يتغير، ولا يحيد، ولا يتأثر بما تحمله الحضارات الأخرى وإن استفاد من بعض تجاربها، بل يؤثر فيها إذا ما تمسك الفرد المنتج بخاصيته، وأسلوبه في العمل، وفلسفته في البناء ضمن الحركية العامة لحضارته المتوثبة، والمنطلقة منه أساسا كخيار لا بديل عنه، بل أنه أمر مرفوض، فالحضارة جوهر ممتد وفضاء عملي لتكريس، وترجمة الانسجام الحاصل بين مجموعة الفئات، والمعطيات تتحرك من منظور شامل ومستتب وحدة، وهوية، وآفاقا وتواصلا.

«إنّ الحضارة التي تميز بخصائصها مجتمعا عن آخر تشكل نسيجا منسجما في وسط أبناء المجتمع الواحد، مهما كانت الفوارق في الدرجة العلمية، أو الإمكانات المادية، أو النوعية، أو المهنة فوحدة النمط الحضاري هي الدافع لعمل أبناء المجتمع الواحد ليس كل لذاته، بل في صيغة تعاونية جماعية الأهداف، لأنّ النهوض والتقدم يكون شاملا، ولا يتحقق تقدم حضاري لأجزاء في مجتمع سمته التخلف»[1]

إنّ استرجاع الدور العالمي لحضارتنا ضرورة ملحة، وعاجلة لأنّ مقومات العودة ليست بمنأى عن إمكانيات الأمّة، وطاقاتها، وقدراتها في مختلف المجالات العلمية، والعملية، ينقصها فقط الإيمان بهذه القدرات وتحريك فعل الإرادة الواعية، والجامحة إلى تكريس هذا الدور بعد الاستفادة طبعا من أخطائنا، وتجاربنا السابقة، وحتى هزائمنا فالهزيمة ليست قدرًا محتوما، ولا أثرًا خالدًا إنما العبرة في أنّ الهزيمة تولد الرغبة في الانتصار وتذكي الشعور المتنامي والدافع إلى السعي الحثيث نحو تحقيق الغاية المثلى، والحضارة المرجوة بما تحمله من إشراقات في صالح الأمّة كمرحلة أولى وما تحمله من بشائر للإنسانية جمعاء انطلاقا من مرجعياتها الفكرية، والدينية المتجذرة في صميم التجربة البشرية التواقة إلى تأكيد الذات والتفوق على الظروف من منطلق أنها هي التي تصنع الظروف المحيطة، والأسباب ولا تصنعها الظروف المنكسة لأي فعل إنساني راغب في تغيير الوضع أو تكسير المعوقات التي تقف في وجه المحاولات والمبادرات الناجحة دائما، وبذلك نكون قد تجاوزنا المراحل

[1]- المصدر نفسه ص162.

الصعبة إذا تخطينا هذه الحواجز «فمن الواجب ألا توقفنا أخطاؤنا عن السير حثيثا نحو الحضارة الأصيلة.. وإنما لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضويا يستغله الرجل الوحيد، أو يضلله الشيء الوحيد، بل ليكن سيرنا علميا، عقليا، حتى نرى أنّ الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلابة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر تنتظم جميع أشيائها وأفكارها، وروحها، ومظاهرها، وقطب يتجه نحو تأريخ الإنسانية وأنّ قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه إزالة التناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم، وذلك بتخطيط ثقافة شاملة يحملها الغني، والفقير، والجاهل، والعالم حتى يتم للأنفس استقرارها، وانسجامها مع مجتمعها، ذلك المجتمع الذي سوف يكون قد استوى على توازنه الجديد»[1]

إنّ الحضارة النموذج عند "مالك بن نبي" هي تلك الحضارة المتأصلة في مرجعياتها، وأسسها، المكتسبة لمناعة ضد التغريب، أو المسخ، المنبثقة عن محفز ديني يتوافق والطموحات الاجتماعية والمساعي ذات الأبعاد الإنسانية في صياغها الحضاري الناشئ والمنتظر، هي مشهد آخر مختلف، ومتألق ذو خاصية إسلامية مطبوعة ومتفتحة على حضارات أخرى في نطاق التبادل الإيجابي دون الانصهار فيها، أو محاولة تقليدها، والانسلاخ عن هويتنا، ومرجعياتنا.

لقد وضع "مالك بن نبي" لهذا المشروع الضخم محاور ثلاثة يكتمل بتفاعلها البناء، ويتجسد حلم الأمّة في استعادة الدور العالمي لهذه الحضارة التي لا تزال تمثل المرجعية لكثير من الدول

---

[1]- "مالك بن نبي".. شروط النهضة ص159

# الفهرس

تمت الطباعة بـــ:
دار الحضارة للطباعة والنشر
-الجزائر-
هاتف/فاكس: 021 44 34 41

... لقـــد توصل "ابـــن نبي" إلى مجموعة من التعليلات، والنتائج المنطقية، والرؤى الهادئة والمتزنة، في نفس الوقت تتخذ المنهج العلمي مسارا ثابـــتا لها، ولا تلغي النظرات الفكرية الأخرى ســـواء كانت عربية إسلامية، أو غربية، وكثيرا ما ضرب لنا أمثلة من هنا، وهناك تبرر انفتاح الفكر "البنابي" على الأفكار، والحضارات الأخرى بعيدا عن التعصب، والفردانية، فقدم بذلك مشروعه الحضاري الضخـــم كبديل لفرضيات أثبتت فشلها، أو بقيت حبيسة فلسفة هجينة تفتت الأفكار الخلاقة، وتنبذ كل دعوة إلى التغيير، والمبادرة.

من مقدمة الكتاب

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع أحمد باي- الجزائر
هاتف: 25 / 24 07 23 (021)
فاكس: 07 07 23 (021)
ص ب: 575 الجزائر - ديدوش مراد

رقم الإيداع القانوني: 2005- 2448 ردمك: 4-9-9522-9961